عيسى

بن مريم

في القرآن والإسلام

إبراهيم بشير الغويل


عيسى
بن مريم
في القرآن و الإسلام

الطبعة الأولى

1428هـ - 2007 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا

ص.ب: 13414

هاتف: 30 24 224 11 963+

فاكس: 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان

ص.ب: 14/6364

خليوي: 833 814 3 961+

تلفاكس: 135 541 1 961+

www.kotaiba.com

E-mail : dar@kotaiba.com

عيسى بن مريم

في القرآن و الإسلام

إبراهيم بشير الغويل



« تنبيه »

إن الأفكار العامة قد يجري عرضها بمناسبة معينة، وقد يذكُر صاحبها بضرورات المناسبة أسماء أشخاص معينين. . . ولكنها، وكأفكار عامة، لا تقف عند هذا الشخص أو ذاك. . ولا تربط الأفكار العامة بالأشخاص، وإنما بالأفكار وحدها ← وما أعرض هنا: هو منهج وموقف عام. . تناولته في مقالات ومحاضرات. . .

I

الصدق ضرورة لصورة من قريب ولكن ؟!!

الحقَّ أقول لكم . . . إنَّهُ كان من الضروري لـ «صورة من قريب»[1] أن تكون صادقة ـ وخاصة مع «الصادق»[2] ! فأنا لا أعتب عليك ـ يا أخ محمود[3] ـ أن «تنقل» ما يعنّ لمن ترسم له «صورة من قريب» من أفكار تكملة للصورة . . بل إبرازاً لأوضح معالمها . . ألاَ وهو العقل الذي كرم الله به الإنسان وميزه به كما يتمايز ويتميز به .

وبهذه المناسبة يهمّني أن نتفق من البداية أنه ليس فيما أكتب ملاحظاً أي إنكار للحق الطبيعي للحي في أن يفكر ويقول : «وإنَّهُ لحق عرفنا الإسلام يقرره ويحميه» **فلو لم يَبْقَ في هذا البلد أو غيره أحد يقول : إنه حق لقلت وحدي** ـ وبتعبير شيخ الأمناء ـ **وأنا أقذَفُ في النار : إنه حق حق ، لأبرأ أمام ضميري ، ولا أشارك في وصم الإسلام اليوم بهذِهِ الوصمة .**

كما أنني أود أن أقرر ـ وأن نتفق إن أمكن ـ أنَّ رجلاً يقول : «بالتأكيد أؤمنُ بالله كما يؤمن به الآخرون» ويقول : «لست كافراً أيضاً وهو بلا شك يؤمن برسول الله ودينه الإسلام وكتابه القرآن ـ وأنه إنما يفهم القرآن السماوي فهماً ما . . بل يفهم متشابهه فهماً ما . . .

← إن رجلاً كهذا . . بصدقه هذا «إنني قد أكون مخطئاً» «وقد كان بودي أن أجد الهداية . . وأجد النقاش المتزن» لا بد له من نقاش متزن ، وأقصى ما يسمح به

---

(1) «صورة من قريب» صفحة ، أو بعض منها ، من صحيفة الرائد التي كانت تصدر في الخمسينات والستينات بطرابلس الغرب [أصدرها في الأول المرحوم الأستاذ الطاهر البشتي ثم تولى إصدارها الأخ الفاضل المرحوم عبد القادر أبو هروس]، وكان «الأخ ـ الصديق» الأستاذ محمود علي الهتكي هو صاحب صفحة «صورة من قريب» . . وكان يجري فيها مقابلات مع «شخصيات» يختارها ويحاورها . . .

(2) والإشارة هنا إلى «الأخ ـ الصديق» المرحوم الصادق النيهوم .

(3) والإشارة هنا إلى «الأخ ـ الصديق» محمود الهتكي .

معه أن يقال لـه أخطأت أو أسرفت أو . . . أو ! ! ! أما أن يقال له ـ قبل أي تحرٍّ، أو تثبّت ـ: كفرت؟! . . . فلا . . .

❖ ❖ ❖

بعد هذا، أود أن أناقش بعض وجهات النظر الغريبة التي جاءت في «الصورة من قريب» مع الأخ الصادق النيهوم . . .

وإذا سمح لي الأخ الصادق أن **نبدأ النقاش بالمنهج** الذي اتبع، ثم **نثنّي بالمثَلِ الذي ضرب، وننتهي إلى تحقيق دلالات الألفاظ ومعانيها** . . «**لننتهي لما نرجو أن يكون الحق**» وأن «**هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**» . . .

المنهج

إنني من الذين يلذ لهم المنهج الأدبي في فهم القرآن وتفسيره، وإنني شخصياً أكاد أعتبر أن منهج الأصوليين في البحث والمقدمات اللغوية ودلالات الألفاظ تمهيداً لفهم النصوص واستخراج الأحكام . . إنما هو صورة من صور المنهج الأدبي الذي يعتمد فقه اللغة في فهم النصوص، بعد تجميعها وترتيبها، تمهيداً لاستخلاص الحقائق . . وتوضيح ما تشتمل عليه النصوص من أفكار . . .

وكان من الممكن أن ينظر إلى الرمز باعتباره جانباً من هذا المنهج، فهو يلتقي معه في الاهتمام بالناحيَةِ الجمالية كما يلتقي باهتمامهِ بمد اللغة بقدرات جديدة، وهو ـ أي الرمز ـ بالأخير طريقة تعبير من الطرق التي تتيحها أداة التعبير الأصلية وهي اللغة .

أما أن يضخم الاهتمام بالرمز لدرجة أن يلوّن نظرتنا ويجعلنا كأصحاب الأفكار الثابتة أو مرضى الإرادة المصابين بالعناد (!) والذين هم على استعداد ألا ينسَوا وهم يموتون غرقى أن يرفعوا إصبعين من أصابعهم رمزاً لإصرارهم وعنادهم على أن البطيخ إنما يقطع بالمقص لا بالسكين[1]؟!

---

(1) إشارة إلى «أقصوصة» عن رجل معاند . . أصرّ على إجابة صدرت منه ـ بسبق لسان؟! ـ حين سئل: بما «تقصّ» البطيخة . . فقال بالمقص؟! (بدلاً من أن يقول بالسكين) . . . ثم دخل يسبح في البحر . . فأخذ يغرق . . فأبى رفيقه الذي كان قد سأله ذلك السؤال إلا أن يكرّر السؤال . . . ← فأخرج المعاند، وهو يغرق، إصبعين . . إشارة للمقص؟!

← إن هذا هو الخطأ بعينه، وهذا هو ما يجر إلى أن نتأول ما ليس في حاجة إلى التأويل، وأن نعتبر التعبير اللغوي العادي متشابهاً في حاجة إلى تفسير، وأن نعد الفكرة الواضحة فكرة معقدة لا تحتمل اللغة العادية التعبير عنها.

وضرب مثلاً:

والمثل الذي ضربه الأخ الصادق بعد ذلك، والذي ظن أنه وجده في حياة المسيح عيسى بن مريم، يقدم الدليل على أن الذي يدرس القرآن ما ينبغي له أن يلونه أو يفرض آراءه ومعتقداته عليه؛ إذ إنَّ الذي يفعل هذا لا يمكنه أن يفهم القرآن فهماً سديداً قائماً على أسس سليمة من الدرس والفهم أو تحديد المعنى التحديد المستمد من الألفاظ القرآنية، بل إنني أكاد أقول المطلوب من وراء الألفاظ القرآنية من معنى وغيره!

وقبل أن نسترسل في النقاش أود أن ألاحظ «أنَّ الوحدة القصصية في القرآن الكريم لا تدور بحال من الأحوال حول شخصيات الرسل والأنبياء عليهم السلام، وإنما تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على الموضوعات الدينية والأغراض القصصية من اجتماعية وخلقية «وعليه يحق لي أن ألاحظ مع الدكتور خلف الله ـ بحق ـ» أنَّ القرآن لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ إلا في النادر الذي لا حكم له، وأنه على العكس من ذلك عمد إلى إبهام مقومات التاريخ من زمان ومكان...

ومن هنا تبينت أن القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ وهي غير مقصودة، وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني، ولو أنهم شغلوا أنفسهم بتلك **المقاصد الحقة لأراحوا أنفسهم من عناء كبير، ولأبرزوا الجوانب الدينية والاجتماعية من القصص القرآني إبرازاً ملموساً** يهز المشاعر والعواطف ويؤثر في العقول وفي القلوب. وعند ذلك «كانوا يمكّنون للدين وقضاياه ويسيرون وهدي القرآن الكريم».

القصة القرآنية

والقصة القرآنية وإن لم تسعفنا بها دراسات الأقدمين إسعافاً كاملاً، إلا أنه لنا أن نجد في **مسائل التوسع واللزوم والتمثيل** بعض العون، «فإن المسألة **الأولى** يمكن

الاعتماد عليها في شرح وتفسير عنصر الحوار الغني، **والثانية** يمكن الاعتماد عليها في الحديث عن الأحداث القصصية وبيان مدى صلتها بالحق والواقع أو بالعرف والخيال، **والثالثة** يمكن الاعتماد عليها في بيان كيفية استخراج القيم الفعلية والتيارات الفكرية من القصة، كما يمكن الاعتماد عليها في بيان أن الممثل به لا يلزم أن يكون من الحقائق، فقد يكتفى فيه بالمشهورات المتداولة وبالفرضيات المتخيلة».

كما أن كتب التفسير تقدم لنا عوناً لا باس به في حديثها عن قصد القرآن الكريم من قصصه وأهدافه التي يرمى إليها.

فإذا ما دفعنا هذه الدراسات نحو أبعادها المتاحة في الدراسات الأدبية والفنية المعاصرة، فإننا سنتحدث عن القصد الأدبي أو الفني من قصص القرآن الكريم، وهل قصد القرآن الكريم في قصصه إلى ما يقصد إليه الأدباء والفنانون من التأثير الوجداني واستثارة العاطفة والخيال إضافة إلى تقديم القيم الفعلية وإقامة الدليل والبرهان.

←إذا كان الرأي كذلك، وهو كذلك، فإنه من حقنا أن نتحدث عن أساس فني بلاغي ينظم به القرآن قصصه، «فأنت ترى أن القرآن يختار من المواد الأدبية القصصية ما يحقق الغرض ويوفي بالقصد، وأنه يعرض عما عداه من أحداث وأشخاص وتفصيلات. ومن هنا لا نستطيع أن نقول بأن هذه القصة (أو تلك) تقصد إلى تعليم الوقائع والتعريف بالتاريخ، وإن كنا نستطيع أن نقول: إنها قصة أدبية نزلت لقصد عاطفي هو التخويف والإنذار (مثلاً)».

ولقد فطن إلى هذا الصنيع القصصي من القرآن وعلّله تعليلاً أدبياً أو بلاغياً أو فنياً أمثال ابن الأثير في المثل السائر وصاحب المنار وغيره كثير ذكرها صاحب (الفن القصصي في القرآن الكريم) تفصيلاً.

وخلاصة ما سبق

1 ـ أنَّنا لا بأس أن نُعْمِلَ منهج الدراسة الأدبية في تفسير القرآن على أننا ـ لا أقل ـ من أن نعامل النص القرآني كما نعامل غيره من النصوص، فنحن **يجب**

علينا أن نقف على المواد التي يراد درسها وأن نجمعها، وندرس ما حولها دراسة تبين تاريخ حياتها وتوضح الظواهر الفعلية والعاطفية والفنية المحيطة بها، ثم إن علينا أن ندرس هذه المواد تحقيقاً وضبطاً، لننتهي إلى دلالات الألفاظ وفهم النصوص «وهنا لابد من تفرقة بين نوعين من **الأول : الفهم الحرفي** ـ وهو الذي يقوم على دراسة معنى الألفاظ والتراكيب والجمل، كما يقوم على توضيح العلاقات الغامضة والإشارات التاريخية. وكل تلك أمور تتوقف إلى حد كبير على ثقافة الدارس.. تلك الثقافة التي شرطها بالنسبة لموضوعنا هذا المفسرون في المفسر، والتي حدد ميادينها الأصوليون في مقدمات كتبهم» «**الثاني : الفهم الأدبي** ـ وهو ذلك الفهم الذي يقوم على تحديد ما في النص من قيم عقلية وعاطفية وفنية، فنقف على ما في النص من صور وآراء، ونبحث عما خلف هذه الصور وهذه الآراء من أخرى لم يشعر صاحب النص بالحاجة إلى التعبير عنها، **إما** لأنه كان يفهمها في نفسه، **وإما** لأن المعاصرين له كانوا يفهمونها عنه».

إن كان هذا هو المنهج الذي كنا نرجو أن يعالج به الأخ الصادق موضوعه، فإننا أيضاً كنا نرجو وقد ضرب مثلاً بقصة من قصص القرآن أن يلتفت إلى الوحدة القصصية في القرآن الكريم وكونها لا تدور بحال من الأحوال حولَ شخصيات الرسل والأنبياء عليهم السلام، وإنما تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على الموضوعات الدينية والأغراض القصصية من اجتماعية وخلقية الخ..

ولقد كنا نرجو أن يحاول التعرف إلى الموضوعات والأغراض ـ دع عنك الآراء والأفكار المنشورة كالصور المبعثرة في العرض القصصي ـ التي تنتهي إليها القصة الواحدة أو تنتهي إليها مجموعة من القصص وردت في سورة واحدة وكان لها مقصد واحد، له أثره في طريقة البناء والتركيب، وفي أسلوب العرض وطريقة توزيع العناصر القصصية.

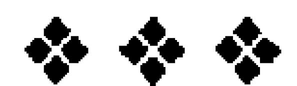
بل إننا كنا نرجو أن يلتفت الأخ الصادق إلى أسلوب العرض وطريقة توزيع العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وحوار.

وأخيراً، فما كان لباحث أدبي فنان أن تفوته الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها القصة في المجتمع وتخدم بها الحياة والأحياء «هذه الوظيفة التي تؤديها الفنون جميعها ومنها الأدب وتنتهي عند عمليتي الإيحاء والإفاضة. . . ».

سؤالان

1 ـ فهل اتبع الأخ الصادق النيهوم المنهج الأدبي كما يجب عليه؟

2 ـ وماذا عن قصة عيسى كما وردت في قصص القرآن الكريم؟



اقرأ غداً:

❖ النيهوم لم يجمع مواد الدراسة ولم يتبين ما حولها ودلالات ألفاظها.

❖ فهم المفسرين والأصوليين غابَ عن النيهوم.

❖ الأساس الفني البلاغي الذي ينظم به القرآن قصصه فات النيهوم

II

الشعور بالنقص أجمل بنا من التزيد الزائف!!!

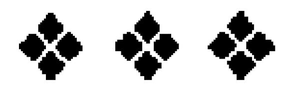
من هنا نبدأ

❖ انتهينا في مقال الأمس إلى أنه :

1 ـ لا بأس أن نُعْمِلَ منهج الدراسة الأدبية مع النص القرآني ، وذلك على أن نعامل النص القرآني لا أقَل بما نعامل غيره من النصوص ، فنحن يجب علينا أن نقف على النصوص التي يراد درسها وأن نجمعها ، وندرس ما حولها دراسة تبين تاريخ حياتها وتوضح الظواهر العقلية والعاطفية والفنية المحيطة بها ، ثم إن علينا أن ندرس هذه المواد تحقيقاً وضبطاً لننتهي إلى دلالات الألفاظ وفهم النصوص . «وهنا لابد من تفرقة بين نوعين من **الأول : الفهم الحرفي** ـ وهو الذي يقوم على دراسة معنى الألفاظ والتراكيب والجمل ، كما يقوم على توضيح العلاقات الغامضة والإشارات التاريخية . وكل تلك أمور تتوقف إلى حد كبير على ثقافة الدارس . . تلك الثقافة التي شرطها بالنسبة لموضوعنا هذا المفسرون في المفسر والتي حدد ميادينها الأصوليون في مقدمات كتبهم ، **الثاني : الفهم الأدبي** ـ وهو ذلك الفهم الذي يقوم على تحديد ما في النص من قيم عقلية وعاطفية وفنية ، فتقف على ما في النص من صور وآراء ، وتبحثُ عما خلْفَ هذه الصور وهذه الآراء من أخرى لم يشعر صاحب النص بالحاجة إلى التعبير عنها ، إما لأنه كان يفهمها في نفسه ، وإما لان المعاصرين له كانوا يفهمونها عنه» .

❖❖ وأود أن أقول : إن دراسة «الرمز» إنما هي أدخل في هذا الجانب من الدراسة لتعلّقها بالناحية الجمالية ، ومد اللغة بقدرة الرمز على التعبير ، وإيجاد طريقة مثلى للاكتفاء بالتلميح والإشارة إلى الأمور المتعارف عليها أو للتعبير عن أفكار أكثر تعقيدا مما تحتمل اللغة العادية .

2 ـ وقد انتهينا في مقال الأمس أيضاً إلى أن المثل الذي ضربه الأخ الصادق النيهوم بقصة عيسى بن مريم كان يقتضي الالتفات إلى معالجة موضوع القصة في القرآن . . وحْدَتها ، الأغراض والمقاصد وأثرها في طريقة البناء والتركيب وأسلوب العرض وطريقة توزيع العناصر القصصية ، الأحداث والأشخاص والحوار ، والإيحاء والإفاضة الخ .



وبعد

لقد آن لنا أن نواصل **السير في منهاج رحب غير محدود . . إلا أنه سير بمنهج . . .**

تجميع مواد الدراسة وما حولها:

❖ أشار الأخ النيهوم إلى مواد الدراسة في كلمات مقتضبة فقال ـ إجابة عن «أين تبدأ الآيات ؟» ـ «في سورة مريم . . وسورة آل عمران . . وفي بضعة أماكن متفرقة أخرى . . ؟!

❖❖ أما على وجه أقرب إلى التفصيل فَإِلَيْكَها :

1 ـ **إن اسم عيسى قد ذكر في القرآن الكريم** (25) مرة : **في سورة البقرة** ـ آية 87 . 136 . 253 ـ **وفي آل عمران** ـ آيات ـ 45 . 52 . 55 . 59 . 84 ـ **وفي النساء** ـ آيات ـ 157 . 163 . 171 ـ **والمائدة** ـ آيات ـ 46 . 78 . 110 . 112 . 114 . 116 ـ **والأنعام** ـ آية ـ 85 ـ **ومريم** ـ آية 34 ـ **والأحزاب** ـ آية 7 ـ **والشورى** ـ آية 13 ـ **والزخرف** ـ آية 63 ـ **والحديد** ـ آية 27 ـ **والصف** ـ آية 6 . 14 .

2 ـ إن **المسيح قد ذكر في القرآن** (11) مرة **منها** ما ورد في الآية 45 من **سورة آل عمران** وفي الآيتين 157 . 171 من **سورة النساء** ، يضاف إليهما الآية 172 من **سورة النساء** أيضاً ، كما ورد ذكرها **في المائدة** ـ آيات 17 (مرّتين) 72 (مرّتين) ، 75 ـ **وفي التوبة** ـ آيتين 30 . 31 .

3 ـ **أما مريم فقد ذكرت في القرآن** (34) مرة، **منها** ما ورد في آيتين 87. 253 **من سورة البقرة** السالف الإشارة إليهما في ذكر عيسى عليه السلام، كما ورد ذكرها في **سورة آل عمران** ـ آيات ـ 36. 37. 42. 43. 44. 45 (السالف الإشارة إليها وقد تكرر ذكرها، **وفي النساء** ـ في آية 156 وآيتي 157. 171 الإشارة إليها وقد تكرر ذكرها، **وفي النساء** ـ في آية 156 وآيتي 157. 171 السالف الإشارة إليهما وقد تكرر ذكر مريم في الأخيرة ـ **وفي المائدة** ـ آيات ـ 17 (مرّتين) 46. 72. 75. 78. 110. 112. 114. 116 ـ **وفي التوبة** ـ آية 31 ـ **ومريم** ـ آيات ـ 16. 27. 34 **والمؤمنين** ـ آية ـ 5 ـ **والأحزاب** ـ آية 7 ـ **والزخرف** ـ آية 57 ـ **والحديد** ـ آية 27، **والصف** آية ـ 6. 14 ـ **والتحريم** ـ آية 12.

4 ـ **كما ذكرت مريم ابنت عمران في سورة التحريم** آية 12.

5 ـ **وقد ذكر عمران** (3) مرات في القرآن الكريم، مرّتين في **آل عمران** آية 33. 35 ـ والثالثة في **سورة التحريم** ـ آية 12.

6 ـ **أما زكريا فقد** ذكر (7) مرات **في القرآن الكريم**، منها ثلاث مرات **في آل عمران** ـ مرّتين في آية 37 ومرة في آية 38 ـ كما ذكر **في الأنعام** آية 85 ـ **ومريم** ـ آية 2، 7 ـ **والأنبياء** ـ آية 89.

7 ـ **كذلك ورد ذكر يحيى** (5) مرات **في القرآن الكريم**، وذلك **في آل عمران** آية ـ 39 ـ **والأنعام** ـ آية ـ 85 ـ **ومريم** ـ آية 7. 12 ـ **والأنبياء** آية 90 ـ **وطه** ـ آية 20.

❖ **أما حول الدراسة فإنه يتصل بتعرف كلمة «يكفل»** باعتبارها كلمة عربية قرآنية، كما يعني التعرف إلى **الظواهر العقلية والعاطفية والفنية المحيطة بموضوع دراستنا ـ وكل هذا، مع التعرف لدلالات الألفاظ**، ينتهي بنا إلى **فهم النصوص على مستويين: المستوى الحرفي** الذي يتصل بالمفسرين والأصوليين، **والمستوى الأدبي** الذي هو ألصق بموضوع الرمز والقصص القرآني **ودلالات الألفاظ**.

ورغم سهولة أن نكتشف غرابة ما ذهب إليه الأخ النيهوم في نظره لمفردات ذكرها ـ «يكفل» مثلاً ـ إلا أننا لن نخفي أن المتأدب الذي يريد متابعة تدرج دلالات الألفاظ وأثرها في هذا التدرج لن تسعفه معاجمنا، فمن أين لنا بمعجم يتتبع الظواهر النفسية والاجتماعية وغيرها من العوامل وأثرها على ألفاظ عربية[1] من خلال تلك الحركة الجياشة المتوثبة بدأت بنهضة دينية وسياسية وثقافية تداولت مع الأيام إلى عصور الازدهار والانحطاط ومحاولات النهوض الخ، وامتدت حتى شملت أمماً مختلفة الألوان والدماء والماضي والحاضر.

«**وإلى أن نملك قاموساً اشتقاقياً، فتدرج فيه دلالات الألفاظ، وتتمايز فيه المعاني اللغوية على قرينتها من المعاني الاصطلاحية على ظهورها**.. فلا معدَى للمفسر من النظر في المادة اللغوية للفظ الذي يريد تفسيره ليميز فيها المعاني اللغوية عن غيرها ثم ينظر في تدرج المعاني اللغوية للمادة نظرة ترتيبها على الظن الغالب، فتقدم الأسبق الأقدم منها على السابق، حتى يطمئن ـ ما استطاع ـ إلى شيء من ذلك ينتهي منه إلى ترجيح معنى لغوي للكلمة، كان هو المعروف حين سمعتها العرب...».

وإذا ما فرغنا من البحث في معنى اللفظة اللغوي انتقلنا إلى معناها الاستعمالي في القرآن نتتبع ورودها فيه كله لنخرج برأي عن استعمالها.

«يكفل» مثلاً

❖ يكفل من كفل وكافل بمعنى كاف، وهو يكفيه ويكفله بمعنى يعوله وينفق عليه، وتقول: هو كفيل بنفسه وبماله، وكفّل عنه لغريمه بالمال وتكفل به.

---

(1) لحكمة سبقت في العلم الإلهي لم تتوفر هذه «المعاجم»، وبقيت «معاجمنا» العربية كما هي عند العربي عند نزول القرآن.. وقد جمّعت من الإعرابي الذي لم تلامسه التطورات النفسية والاجتماعية وغيرها من العوامل الحضارية ذات الأثر على الألفاظ؟!

وقد قدم الأستاذ الدكتور محمد أحمد الشريف محاضرة في مجمع اللغة العربية بطرابلس الغرب مؤخراً (بتاريخ 1974 (2006م)) تعتبر «أنموذجاً» لتتبع لما للحركة الجياشة المتوثبة في عصور الازدهار من أثرٍ على بعض ألفاظ لغتنا.

وتقول: رأيت فلاناً كِفْلاً لفلان بمعنى رأيت فلاناً رديفاً لفلان، واكتفل به ٪ إرتَدَفَهُ، واكتفلت بالشيء جعلته ورائي.

وتقول جعلني كافله بمعنى القائم به.

وتقول «له كفْلٌ من الجزاء» ضعف.

وتقول أكْفَلَني ماله: ضمّه إليّ.

❖ وبهذا وردت في الآية (40) من سورة طـه ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ وفي القصص (الآية 12) ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ أي بمعنى يكفونه ويعولونه وينفقون عليه.

ووردت بمعنى القائم على الأمر والرقيب والحامي الذي يرتكن إليه في قوله تعالى **في سورة النحل** (آية 91) ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾.

ووردت بمعنى الضعف في قوله تعالى **في سورة الحديد** (آية 28) ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾.

ووردت بمعنى ضم المال إلى مال في **سورة ص** (آية 23) ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾.

❖ فأنت ترى - إذن - **أن الأخ الصادق النيهوم قد يكون لم يجمع مواد دراسته جيداً**، كما **لم يتبين ما حولها، ولم يُعِرْ دلالات الألفاظ حقها من الاهتمام**.. خاصة وأنت تقرأ له القول بأن «كلمة يكفل» التي وردت للمرة الثانية يمكن لغوياً أن تعني أيضاً يتزوج»؟!

وماذا بعد

والخطوة التي تلي هذا هي النظر في المركبات مستعينين بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة وما إليهما، «ولكن لا على أن الصفة النحوية عمل مقصود لذاته، ولا يكون التفسير كما كان الحال قديماً، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، والنظر في اتفاق معاني القراءات المختلفة للآيات الواحدة، والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله..».

ـ وهذا ما اصطلحنا على تسميته بالفهم الحرفي وقلنا : إن المفسرين قد اشترطوا شروطه وحدد الأصوليون حدوده .

أما عن النظرة البلاغية في هذه المركبات فليست هي تلك النظرة الوصفية التي تعني بتطبيق اصطلاح بلاغي بعينه وترجيح أن ما في الآية من كذا وكذا أو إدراج الآية في قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر ! ! كلا ، بل «**إن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني ، وتستبين معارف هذا الجمال ، وتستجلي قسماته ، في ذوق بارع ،** قد **استشف خصائص التراكيب العربية . . منضماً إلى ذلك التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية ،** بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته فناً فناً» وهذا ما اصطلحنا عليه بالفهم الأدبي ، وقلنا إن دراسة الرمز أدخل فيه ، كما أوضحنا أنه يقتضي معرفة الأساس الفني البلاغي الذي ينظم قصص القرآن .

سؤالان

1 ـ فماذا قال المفسرون ؟ !

2 ـ وما هو التفسير الحرفي والأدبي الذي نراه لقصة عيسى عليه السلام في القرآن ؟

حتى نلتقي . .

ومع الاعتذار للأخ محمد فخر الدين الذي أستأذنُهُ في استخدام هذا العنوان[1] ، فالحقَّ أقول لكم : إنني قد أكون قد أثقلت عليكم بما أصّلت من منهج وما أعدت من وصف لمعالمه إلا أنني أذكر مالا أنساه أبداً ، كلما حاضرت أو كتبت ، فأقول للذين أثقل عليهم : مهما يكن لهذه المطالب التي تتطلبها الدراسة المنهجية من أثر يثقل خطانا ، ويؤخر إثمار دراستنا ، ويشعرنا بالنقص ، ويعود علينا باللائمة ، فإن هذه هي الحقيقة ـ كما يقول شيخ الأمناء ـ «ولن نكذب على أنفسنا ، وعلى الأجيال ، فنزعم الكفاية الكاملة ، والقدرة الموفورة . ولئن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف» .

---

(1) الأخ الفاضل المرحوم الأستاذ محمد فخر الدين رئيس تحرير صحيفة «طرابلس الغرب» التي كانت تصدر عن «مصلحة الاستعلامات» . . وكان يكتب تحت هذا العنوان : حتى نلتقي . .

III

«ذلك عيسى بن مريم قولَ الحق الذي فيه يمترون» ؟!

← **إلى القرآن الكريم..**

ولئن كنا نرى أن يتغير المنهج في تفسير القرآن سوراً (على ترتيب ما) إلى تفسيره موضوعات نجمع متفرّقها من أماكنه، لنقرن الشبيه إلى الشبيه، ونفسر المثل بالمثل. . .

وكان هذا رداً للتفسير إلى الدراسة الأدبية وأخذاً فيه بمنهاجها . . .

إلا أن الأُلى ذهبوا في تفاسيرهم إلى تناول القرآن سوراً على ترتيب ما، وليس لنا ونحن نعود لتفاسيرهم إلا أن ننزل عند رأيهم، وإن ألزمتنا طريقتهم هذه لوصلها بالدراسة الأدبية أن نعتبرها من قبيل وجوب نظرنا إلى أدب الأديب جملة ـ ولله المثل الأعلى ـ «وعلى أن له وحدة متماسكة، ليتم بعضه بعضاً، ويتهيأ لنا بتكامله فهم بعضه ببعض، **فليس يصح أن نسوق قطعاً من شعر شاعر، أو نثر ناثر، لأن فيها شاهد فكرة عنه، أو حجة رأي فيه، وقد يكون في غيرها من سائر شعر الشاعر، أو نثر الناثر، ما ينقض هذا أو يحدده، أو يؤثر عليه بوجه ما. . بل إنّهُ لا يصح لنا أن نجمع منه فناً معيناً، من شعر شاعر، ونثر ناثر، فنروح نؤرخه، قاطعين النظر عن سائر فنونه، متناسين أن مديحه قد يفهم برثائه، إذ إنّ وضعه قد يزيد هذين الفنين، أو يزيد أحدهما، بيانا.**

فلابد من مراعاة هذه الوحدة مراعاة تصل الأول بالآخر وترد القريب إلى البعيد . . . .».

ولئن أمكننا أن نحقق هذا الجزء من الدراسة الأدبية للقرآن إن تابعنا القرآن كله سورة سورة لنحقق ما يمكن أن يسمى بالمنهج الداخلي أو الفهم الدقيق المستشف، إلا أننا لا نستطيع تحقيق وصل الأدب بالأديب بحيث نفهم

الأدب بشخصية صاحبه، «ومن هنا يكون فهمنا للنص القرآني، هو كل ما نبغيه ولا نتجاوزه إلى شيء من تاريخ الأديب وحياته، لأنه أفق لا نرنو إليه، ولا نصل حياتنا إلا بآثاره ونتائجه. . .

«وإننا حين نفهم النص القرآني نتبين، النص بما حوله. . من ملابسات وأسباب نزول ووقائع وأحوال. . .

مالا يدرك كله

وقد قيل مالا يدرك كله لا يترك جله، ولكننا هنا لا ندرك الكل ولا الجل فأرجو أن تكتفوا مني بالبعض، والبعض كثير!

وقبل أن نقف مع الأخ النيهوم مع السورتين التي بَدَا من حديثه أنه درسهما. . **يخطر ببالي سؤال:**

هل حقق الأخ النيهوم ما اصطلحنا عليه بشرط النظر في أدب الأديب جملة قبل أن يدلي برأيه؟. . وبالأدق، هل عاش الأخ النيهوم على الأقل في ظلال القرآن يتفَيَّؤُها ولو لفترة؟. . .

سورة مريم والبدء بحروف هجائية؟!

«سورة مريم من السور المكية التي تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به، وتقرر عقيدة البعث والجزاء، وهي إحدى تسع وعشرين سورة بدئت بحروف هجائية. وقد لوحظ أن هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف. ولعلها لهذا بُدئت كلها ببدء غير مألوف. . وهو تلك الحروف الهجائية التي تنطق بأسمائها وبمسمياتها. . وذلك ليكون البدء الغريب قرعاً للأسماع وإعداداً لتلقي غرائب لا تعرف السنن المألوفة»!

زكريا وولده يحي بين سورتي آل عمران ومريم

وقد ذكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

وذكرت في سورة مريم ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ .

وهكذا نرى الحديث في سورة آل عمران عن البشارة بيحيى، وطلب زكريا أن يجعل الله له آية، وتكليفه بذكر ربه كثيراً وتسبيحه بالعشي والإبكار.

بينما نجد في سورة مريم خروج زكريا على قومه من المحراب وإيحاءَهُ إليهم أن يسبحوا ربهم بكرة وعشياً، كما نجد الخطاب موجها إلى يحيى، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾.

القصة التوأم

وتذكر السورة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قصة مريم. وقد آخى القرآن بين القصتين في غير موضع، ومن الملفت للنظر أن سورة آل عمران تحدثت عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى، بينما تحدثت سورتنا هذه «أي سورة مريم أو ﴿كٓهيعٓصٓ﴾» عن حملها

بعيسى وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشراً سوياً، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

«ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها، واشتد حزنها، لا لشك في نفسها، وإنما لتقدير ظنون الناس فيها ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾».

ومن المهم أن نتابع الآية الكريمة التي توضح حواراً شبيهاً بحوار زكريا، وتحمل القول الإلهي ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كما تكشف عن أن الله يفعلُ ما يشاء وأنَّهُ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾...

ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أننا كما نجد زكريا يخرج من المحراب ونجد ابنه يحيى مخاطباً في سورة مريم فإننا نجد أيضاً مريم أتت به قومها تحمله ونجد عيسى يكلم الناس في المهد صبيا...

ولا تغيب عن فطنة القارىء الكريم المقارنة بين قوله تعالى عن يحيى ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وبين قوله تعالى عن عيسى ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾!!

ـ كما لا تغيب عن القارىء **نسبة عيسى إلى أمه** ﴿**ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ**﴾.

وما أَجْمَلَ ما أَجْمَلَ به عيسى وهو في المهد رسالة السماء إلى الأرض «**قول الحق**»!

وإنَّها لرسالةٌ قد استوفت تجربتها بل تجربتيها، لأنها **كانت في الواقع تجربتين ودعوتين، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة،** وهما **يحيى وعيسى بن مريم!**

وهي على كل حال، دعوة الغيرة الصارمة الأبية، ودعوة الغيرة السمحة الرضية.

ولكن قول الحق، صارماً أو سمحاً، لابد له أن يصطدم بحمْأةِ الشهوات وعناد الغرور... وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال:

«إن يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان، ثم جاء ابن الإنسان بأكل ويشرب فقالوا إنه إنسان أكول شريب محب للعشارين والخُطاة».

هي الأهواء التي أخذت بالناس في شأنه هو إلى جهات متباينة، «فمنهم من قال به على مريم بهتاناً عظيماً، ومنهم من قال به على الله شيئا إدّا».

ـ هكذا في كلمات قليلة **عَرّفَ به وبرسالته وبمواقف الناس منه** ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ سبحانك ربي إذا قضيت أمراً فإنما تقول له كن فيكون. . . .

إلى الأُلى..

بينما وجدتني منجذباً إلى متابعة العرض، وكدت أن أبدأ عرض التفسير الحرفي والأدبي الذي أراه لقصة ميلاد عيسى عليه السلام في القرآنْ شعرت وكأن رقيبا عليّ «من نفسي يقول لي: ـ وعلى لغة إخواننا أهل الشام ـ «لطفاً ـ قف ـ وعد إلى المفسرين وماذا قالوا، فإن منهجك يقتضيك هذا، وقرّاءك ينتظرونه».

فذلكة: السفارة اللبقة..

ورغم أن الهاتف الداخلي يستحثني المسارعة بالسير نحو الأُلى لأتم على الأقل النقطة الثانية من نقط الموضوع والتي تكشف أن **فهم المفسرين والأصوليين قد غابا عن النيهوم**، ولنختتم بتوضيح الأساس الفني البلاغي الذي ينظم به القرآن قصصه.

ورغم حرصي على ألا نثقل الخطى نحو الخاتمة وإثمار الدراسة. . إلا أنني لشعوري أن الحيز المتبقي من هذه المقالة لا يمكن أن يسمح بأن نعرض إلى أقوال المفسرين، فقد رأيت أن نمهد بهذه الفذلكة التي تكشف عن الفهم الذي كان يسود الفكر الإسلامي عن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، كما نلفت النظر إلى أن التقريرات القرآنية كانت مقاربة إجمالاً لما جاء في الأناجيل «وهكذا يتسق أسلوب القصة القرآنية مع أسلوب القرآن العام في إيراد ما هو معروف من الأحداث لتكون الحجة أقوى وألزم وهذا في فصل سورة مريم الذي نحن في صدده أشد قوة حيث تهيب الآيات التعقيبية الأخيرة بالسامعين إلى وجوب تفهم ما هو معروف ومدون

تفهماً صحيحاً وتأويله تأويلاً سليماً والى أن ذلك هو الطريق المستقيم إلى الحق والحقيقة» !

والفذلكة التاريخية تقول : إن أحد علماء المسلمين المتفقهين ـ ولم أعد أذكر اسمه الآن ـ كان يقوم بعمل سفارة للمسلمين لدى أحد أمراء المدن الإيطالية ، وكانت السلطة الدينية في القرون الوسطى ، وفي هذه المدن ، لها السلطة الزمنية . وفي إحدى المناسبات التي كان فيها السفير المسلم يؤدي زيارة إلى بلاط الأمير قال له الأمير أو أحد حاشيته ـ ما مفاده ـ «كيف أخبار صويحبة محمد؟!» ـ وكان يشير إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ويلمح إلى حادثة الأفك ـ وهنا جاءت قولة الحق من نفس تملؤها الغيرة ، ولكنها الغيرة السمحة الرضية التي تناسب السفارة اللبقة ، فقال السفير المسلم ـ ما معناه ـ «هما امرأتان اتهمهما أهلهما ، وإحداهما أتت به قومها تحمله ، وقد برأهما القرآن ـ فنحن نبرئهما» !!!

وموضع الشاهد لا يخفى في الدلالة على أن هذا هو الفهم الإسلامي . .
وهذه هي روح التسليم التي تعقب الإيمان بالله وبالملائكة والكتب والرسل ، كما أن موضع الشاهد يكشف ثقة المتحدث من تصور المخاطبين لولادة عيسى بن مريم من غير أب .

والى اللقاء

نتحدث فيه عن أقوال المفسرين ، ونخلص إلى أسلوب القصة القرآنية ، وقد يقتضينا البحث تحقيق ما هو معروف من أحداث القصة ، وقد يمتد أمامنا السبيل ، ونحن نسير في منهاج مفتوح ، إلى مناقشات عن **أصل الظاهرة الدينية وظاهرة النبوة والظاهرة القرآنية الخ . . .**

ـ وكل هذا ، بقيد واحد لا غير ، هو التزام المنهج وابتغاء الحق . . .
والحقّ أقول لكم . . .

IV

مناقشات من حول الموضوع، ولكنها في صميمه ؟!

- خلفية النيهوم الفلسفية هي التي دفعته لدراسة (الرمز في القرآن)؟
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة . .
- مناقشة لخلفية النيهوم الفلسفية . .
- المنهج اللغوي الأدبي النفسي لتفسير القرآن أولى وقبل الخلفيات الفلسفية . .
- الشعور بالنقص أجمل بنا من التزيد المسرف . .
- قال المفسرون . .
- الدراسات الدينية المقارنة . . .

لقد كان تخطيطي لمقال اليوم أن يكون عن أقوال المفسرين، والرأي الذي نرتئيه عن قصة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ـ مع التعرض لأسلوب القصة القرآنية، والأبحاث المقارنة الخ . . .

وفي آخر المقال الماضي ـ وقبل أن التقي مع الأخ النيهوم أتثبت منه وأحاوره ونتجادل بالتي هي أحسن ـ **قلت**: «**وقد يمتد أمامنا السبيل، ونحن نسير في منهاج مفتوح**، إلى **مناقشات عن** أصل **الظاهرة الدينية وظاهرة النبوة والظاهرة القرآنية**»، ولم **أكن ادري أن مناقشات من حول الموضوع مع الصادق، ومن حول الصادق**، ستجعل لزاماً عليَّ أن أعرض لهذه القضايا قبل غيرها، لأنني اكتشفت أنَّها تكوّن «الخلفية» التي يستند إليها الأخ الصادق، وهي «الإطار» الذي يتحرك بداخله الأخ الصادق، وهي المنظار الذي نظر منه في دراسته عن «الرمز في القرآن»، وهي هي التي تجعل الذين تصدوا له بالتكفير أبعد ما يكونون، أو أقرب ما يكونون، عن الصواب .

فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة..

قال حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي في كتابه الذي أعطاه العنوان المذكور «واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان، والحق والضلال، **لا تنجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال**».

ويقول «وكيف تتجلى أسرار الملكوت **لقوم اتخذوا إلههم هواهم، ومعبودهم سلاطينهم، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم، وشريعتهم رعونتهم**»؟!

«فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان، **هل بإلهام إلهي؟ وهم لم يفرغوا القلوب من كدوراتِ الدنيا**، أم **بكمال عقلي، ولا بضاعة لهم في العلم إلا مسائل النجاسات الحسية والمياه المخلوطة**، هيهات هيهات أن ينالوا شيئاً من ذلك المطلب الذي لا ينال بالهوينى، فلا تضيع فيهم بقية عمرك، وأقرأ قوله تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾» (سورة النجم، الآيتان 29 ـ 30).

ويعرض حجة الإسلام لمقدمة صغيرة عن مراتب الوجود، كما يخوض في التعريف بحد التكذيب والتصديق والفرق بينهما، ويعرض لمقام عوام الخلق ومقام الباحثين ثم يقول «ثم ينبغي أن تعلم **من الناس من يبادر إلى تأويل ظواهر النص بمجرد ظنون، فهذا أيضاً لا نسارع إلى تكفيره في كل مقام. بل ينظر فيما قال فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد فلا نكفره**، وذلك كمن يقول إن فلق البحر لموسى كان بواسطة الجزر، فإن هذا التأويل مع كونه لا يتفق مع قوله تعالى ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (آية 63 من سورة الشعراء) فإنه لا يسوغ أن يكفر صاحبه، بل نخطِّئه».

وصية وقانون..

ثم قال: واعلم إن شرح ما يكفر ومالا يكفر يستدعي تفصيلاً طويلاً، **فاقنع الآن بوصية وقانون:**

أما الوصية فهي أن تكف لسانك عن أهل القبلة، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله، غير مناقضين لهما.

والمناقضة تحصل بتجويزهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما القانون فهو أن تعلم أن **النظريات قسمان، قسم يتعلق بأصول العقائد** كما سبق، و**قسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان ثلاثة:** هي **الإيمان بالله، والإيمان برسوله، والإيمان باليوم الآخر ـ وماعدا ذلك فروع.**

واعلم أنه **لا تكفير في الفروع إلا في مسألة واحدة**، وهي **أن ينكر حكماً ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر القاطع** (والتواتر الصحيح غير المستفيض المتواتر) وأجمعت عليه الأمة بسائر طوائفها.

كإنكاره.. وجوب الصلوات الخمس، أو صوم رمضان...

خلفية النيهوم الفلسفية.. والإيمان بالله وبرسوله واليوم الآخر...

وعساه قد اتضح لك الآن، وبعد عرض رأي حجة الإسلام في «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، أنه كان أولى بالبعض أن يكف لسانه عن أهل القبلة حتى يتثبت ـ بالأقل ـ من موقف النيهوم من أصول الإيمان الثلاثة ـ وما عدا ذلك فروع «وأعلم أنه لا تكفير في الفروع....».

وأنا هنا عارض لك خلفية النيهوم في هذه القضايا في أكمل منطق، وأبلغ صورة، وأقوى حجة يقدرني عليها الله، وأرجو ألاّ يتسرع البعض من المسارعين إلى الإفتاء (!) فيتصيدون الفرصة قائلين إنه يقر رأيه ـ ومن يدري فقد يكون رأيه مما يعجبهم أو لا يعجبهم، وقد يكون مما لا يعجبني أيضاً، ولكنني **سأعرضه بأكمل منطق أستطيع**، و**أبلغ صورة أملك**، و**أقوى حجة أقوى عليها!**

وليس هذا حماساً للرأي، أو إقراراً له، أو اقتناعاً به، أو ترويجاً له، **بل** تمهيداً لمناقشته ونقده وإقراره أو نقضه، **تماماً كمسلك القرآن الكريم ـ ولله المثل الأعلى ـ حين يعرض لآراء لا يقرها، فهو يعرضها في أحكم منطق، وابلغ أسلوب، وأقوى حجة** ـ وكيف لا، والقرآن كله معجز ـ **ولكنها لا تلبث أن تتهافت ويبين بطلانها إذا ما كشف زيفها وعرّاها من بهرجها وأقام ضدها الحجة والبرهان.**

الذين يطعنون وينهشون الجيف؟!

وهكذا، فأنت ترى أنني من الذين لا يرضون لأنفسهم أن يطعنوا وينهشوا الجيف، كما أنني لا أرتضي لنفسي أن أجهز على جثة هامدة، وهو ما يبدو أن البعض لازال يفعله، فهم يعرضون رأي الخصم مُشَوَّهًا بل ميتاً ثم يجهزون عليه!!!

هكذا قال الحكيم

وبهذه المناسبة أود أن أقول كلمة لك يا أخ الصادق ـ ولا أريد أن أقولها لمحمود الهتكي، لأنني لا أدمجه في المعركة كما يحاول البعض الذين يبدو أن لهم (ثأر بايت) معه!!!:

أنت ـ إذن ـ حي، «فالكائن الحي هو الذي ينهش كاللحم، لان الجيف لا تطعن ولا تنهش، ومادمت حياً فلا شيء في الأرض يمنعك من الركوض على جواد الكفاح» وإن أروع الكفاح هو كفاح النفس في سبيل احتمالها الضربات في صبر وابتسام...

هكذا قال الحكيم!

.. وهكذا أقول لك في محنتك التي تمر بها.

ـ فاصبر وابتسم...

هكذا تكلم النيهوم؟!

الحق أقول لكم... إنني تحرزت أن أقف هذا الموقف الذي أُعْطِي فيه «**صورة من قريب**» ـ وإنني أغبط الأخ محمود الهتكي الذي تستحمل أعصابه أن يقوم بهذه المهمة كل أسبوع ومع أشخاص يختلفون من مرة إلى مرة وعنه يخالفون في مرات عديدة ـ **لما دار «وراء الكواليس» من مناقشات مطولة متتابعة** استغرقت الساعات، وقد تشغل من جريدتكم «الرائد» الغراء حيزاً كبيراً، وقد تدخلنا في تفاصيل هي خطوات الطريق التي قد تتسع أو تضيق، وتسرع أو تتريث ـ على ألا ننسى المنهج، وعند المفترق الحاسم لا بد من العودة إلى المنهج...

تذكرة

وأنا حريص الحرص كله أن يذكر القارىء الكريم **أن عزمي قد انعقد على أن أحقق على الأقل أمنية لي تصرم الزمن وتفانت الأيام وألهاني عن القيام بها انشغالي** فيما لا يغني عنها شيئاً يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى أيقظني إليها النقاش مع الأخ الصادق النيهوم.

وأمنيتي أن أكتب توطئة لمنهج لغوي أدبي نفسي مقارن يهتم بدراسات تفسير القرآن.

والقرآن «معجزة» العربية في بلاغة نظمه.. واتساق أوضاعه وأسراره...

«ولا ننسى أن القرآن الكريم بهذه اللغة العربية أُنزل على نمط «معجز» قليله وكثيره معاً، والقرآن بما تناول من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال «الإعجاز»، وصورها بالحقيقة، وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاولة في تقلب الأساليب وتحويل التراكيب إلى التراكيب قد أظهرها مظهراً لا ينقضي العجب منه، وجلاّها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصة».

والذين لا يعرفون أسلوب القرآن الخاص - والذي لا يكون إلا بامتزاج القرآن باللحم والدم - فإنهم وإن عرفوا مفردات الألفاظ وصور الجمل فإنهم عنه مبعدون.

«وإنما انفردت آداب القرآن الكريم في ذلك الجيل الذي عرفت من خبره بالأسلوب الذي تناولها فيه، ما يشبه في صفة البيان أن يكون وحْياً يوحى إلى كل من يفهمه ويقف عنده متثبتاً بحال من الرأي، وفحص من النظر وبإدمان التأمل، وأخذ النفس بالتردد في أضيق ما بين الحرف والحرف من مسافة المعنى لدقة النظم وإبداع التركيب، إلى ما يبهر الفكر ويملأ التصوّرَ عجباً - وهذا تفسير ما جاء في الأثر من أنَّ (من قرأه فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه)»!

ورحم الله إمام المفسرين الطبري حين قال: «إنني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذ بقراءته؟» ولكننا نريده تأويلاً محكم المنطق على طريقة البلاغة - بتعبير المرحوم صاحب إعجاز القرآن.

و «طريقة البلاغة يراد بها تحقيق المعنى، واستبراء نجابته، وامتلاخ الشبهة منه، وأخذ الوجوه والمذاهب على النفس من أجزائه التي يتألف منها، بعد أن تستوفي على جهتها في الكلام استيفاء يقابل ما يمكن أن تشعر به النفس من هذه الأجزاء، حتى لا تصرف عنه، ولا تجد لها مذهباً ولا وجهاً غير القصد إليه، **فيكون من ذلك الإلزام البياني الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ وكان حتماً مقضياً**».

«والقرآن وإن كان لم يخرج عن أعلى طبقات اللغة، ولا برز عن وجوه العادة في تصريفها، غير أنه أتى بذلك من وراء النفس لا من وراء اللسان، فجعل من نظمه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية، وأدار المعاني على سنن وجدة تجعل الألفاظ كأنها مذهب هذه المعاني في النفس، فليس إلا أن تقرأ الآية على العربي أو من هو في حكمه لغة وبلاغة، حتى تكون في نفسه مذهبها: لا تَني ولا تتخلف...

العرب ألسنتهم تقود أرواحهم

وكما يقول صاحب إعجاز القرآن: إن العرب ألسنتهم تقود أرواحهم، **وقد قادهم القرآن من ألسنتهم**.. وبذلك **نزل منهم منزلة الفطرة الغالبة التي تستبد بالتكوين العقلي** في كل أمة».

وهذه الحقيقة للأسف الشديد لم تنل الاهتمام اللائق بها، وذلك بدراستها من جوانبها اللغوية والأدبية والنفسية.

ولقد أكثر بعض القوم من علمائنا - سامحهم الله - الكلام في إعجاز القرآن، وجاؤوا بقبائل من الرأي لونوا فيها مذاهبهم ألواناً مختلفة وغير مختلفة، بيد أنهم يمرون في ذلك عرضاً على غير طريق ولا منهج...

أمانة حملها «شيخ الأمناء»

وللحقيقة والتاريخ فإن هذه الأمانة والتوطئة لهذا المنهج اللغوي الأدبي النفسي أبى «شيخ الأمناء» أستاذنا المرحوم الشيخ الأمين الخولي إلا أن ينهض لحمل مسؤوليتها، وأنشأ لذلك مدرسة . . ولكنها على ما يبدو اهتمت أكثر ما تهتم بدراسةِ نصوص أدبية أخرى، وباستثناء تلميذته الدكتورة بنت الشاطيء وعدد قليل آخرين، وجميعهم غير كثيرين، لا نجد المحاولة تتقدم إلى الأمام . . وجزى الله الشيخ الخولي كل خير.

أمانة في عنقي لآخرين

وما دمنا قد ذكرنا شيخ الأمناء فلا يمكنني أن أنسى أساتذة وشيوخاً آخرين كان لهم الفضل في تنمية هذا المنهج في ذهني بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ورغم أنَّني لا أستطيع ذكرهم على سبيل الحصر فلا يفوتني أن أذكر أساتذة اللغة العربية والدين على أيامنا من أمثال الأستاذ الأمين الحافي والشيخ محمود المسلاتي والأستاذ الهادي عرفه . . . وأستاذاً لغير اللغة العربية وقتها، بل ولم نكن نعلم وقتها صلته بالعربية، ألاَ وهو أستاذنا ـ الذي عرف في ما بعد ـ بالأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد (وقد شرحنا فضل الله الذي أجراه علينا على يدي هذا الأستاذ في كتابنا «ضلالات فتى حول كبرى اليقينيات» . . .)، ولن أنسى أستاذنا العلامة الشيخ محمد أبو زهرة والدكتور محمد يوسف موسى والسيد محب الدين الخطيب والشيخان خلاف: الشيخ عبد الوهاب خلاف والشيخ عبد المنعم خلاف والدكتور عبد العزيز كامل والمرحوم سيد قطب والأستاذ العلامة المحقق محمود شاكر ـ وغيرهم كثير جزاهم الله عنا كل خير وأفاد منهم شباب هذه الأمة العربية المسلمة . . .

عود من الأمانة إلى الشهادة

لقد جرّنا الحديث هذه الوجهة التي قد تكون هروباً لا شعورياً مما تحترس به الألسن في اللدد والخصومة وما يأخذ البعض على البعض من مذاهب ونحل، وليس

وراء ذلك كله إلا ما يحقر هذه المقاييس من صناعة التكفير، ثم فتنة متماطلة لا تقف عند غاية في اللجاج والعسر.

ولكن....

كيف لي أن اكتم الشهادة؟!

وقد تكلم النيهوم أمامي.. فلا بد أن أشهد بما قال وإلى لقاء **سأدلي لك فيه بشهادة عما تكلم فيه النيهوم، ثم نواصل السير حسب منهاجنا** الذي قلت لك: إنني قد عقدت العزم عليه إن شاء الله.. آملاً أن أقطع شوطاً في منهج رجوت أن أخطو فيه خطوة إلى الأمام - فهل يستطيع مثلي أن يحقق هذا؟!

ورغم أنني أشعر أنَّني من أهل زمان أوتوا من العجز والتهاون أضعاف ما أوتي أسلافهم من الجد والقدرة! إلا أنَّني أرجو...

- اقرأ غداً:

❖ هكذا تكلم النيهوم

❖ مناقشة للخلفية الفلسفية للنيهوم

❖ المنهج الأدبي النفسي..

❖ قال المفسرون...

❖ الدراسات الدينية المقارنة....

٧

... هكذا تكلم النيهوم ؟!

عود على بدء

لعله من المناسب **قبل أن أعرض اليوم للمواضيع التي حددنا، والتي سيكون مبتداها** (هكذا تكلم النيهوم)، **أن يعود القارىء الكريم معي بذاكرته إلى ما ابتدأت به** مناقشتي لآراء الأخ النيهوم، وقد قلت يومئذ «وبهذه المناسبة يهمُّني **أن نتفق منذ البداية أنه ليس فيما أكتب ملاحظاً أي إنكار للحق الطبيعي للحي في أنْ يفكر ويقول، وأنّه لحق عرفنا الإسلام يقرره ويحميه، فلو لم يبق في هذا البلد أو غيره أحد يقول: إنه حق لقلت وحدي** ـ وبتعبير شيخ الأمناء ـ **وأنا أُقْذَفُ في النار «إنه حق حق»**، لأبرأ أمام ضميري، ولا أشارك في وصم الإسلام اليوم بهذِهِ الوصمة».

وفي نفس المقال الأول وضعت **خطة المناقشة** في قولي «وإذا سمح لي الأخ الصادق **أن نبدأ النقاش بالمنهج الذي اتبع، ثم نثني بالمثل الذي ضرب** ونتنهي **إلى تحقيق دلالات الألفاظ ومعانيها**... الخ.».

❖ **وفي «المنهج»** أشرت إلى المنهج الأدبي في فهم القرآن وتفسيره وقلت «من الممكن أن ينظر إلى الرمز باعتباره جانباً من هذا المنهج...».

❖ ولكنني....

كأنني استشعرت أن الأخ الصادق قد يكون لم يأخذ بدراسة الرمز في القرآن متدرجاً بالمستويات التي يقتضيها المنهج اللغوي الأدبي، إذ قلت «أما أن يضخم الاهتمام بالرمز [لمجرد الاهتمام بالرمز] لدرجة أن يلوّن نظرتنا ويجعلنا كأصحاب الأفكار الثابتة أو مرضى الإرادة المصابين بالعناد (!)....» «إن هذا هو الخطأ بعينه، وهذا هو ما يجرنا إلى أن نتأول ما ليس في حاجة إلى التأويل، وأن نعتبر اللغوي

العادي متشابهاً في حاجة إلى تفسير، وان نعد الفكرة الواضحة فكراً لا تحتمل اللغة العادية التعبير عنها». وقلت يومئذ:

«إن الذي يدرس القرآن لا ينبغي له أن يلونه أو يفرض آراءه ومعتقداته عليه، إذ إنّ الذي يفعل هذا لا يمكنه أن يفهم القرآن فهماً سديداً قائماً على أسس سليمة من الدرس والفهم أو تحديد المعنى التحديد المستمد من الألفاظ القرآنية بل إنني أكاد أقول المطلوب من وراء الألفاظ القرآنية من معنى وغيره».

❖ **أما ما تبقى من المقال الأول والمقال الثاني** فهو تأصيل للمنهج اللغوي الأدبي النفسي الذي ينبغي أن نعامل به النص القرآني الشريف، وتبياناً لما اعتقدته من أن الأخ النيهوم إنما قال بما قال به في قصة ميلاد عيسى فمرجعه أنه لم يجمع مواد الدراسة ولم يتبين ما حولها ودلالات ألفاظها . . .

❖ **وقد كان المقال الثالث** بمثابة المقدمة لتعرف أقوال المفسرين والأصوليين الذين اعتقدنا أن الأخ النيهوم قد غاب عليه متابعتها . . . .

❖ وبينما **كان موعدنا في المقال الرابع** الذي نشر بالأمس 25/ 3/ 1969 أن نعرض لأقوال المفسرين وما هو الرأي الذي نرتئيه عن قصة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ـ مع التعرض لأسلوب القصة القرآنية والأبحاث المقارنة الخ . . .

أقول . . . بينما كان هذا هو تخطيط مقال الأمس **فإذا بي أجدني أمام مناقشات من حول الموضوع مع الصادق، ومن حول الصادق**، تجعل لزاماً عليَّ أن أعرض «**لخلفية الأخ النيهوم الفلسفية**» لأنني اكتشفت أنها تكوّن «الخلفية» التي يستند إليها الأخ الصادق، وهي «الإطار» الذي يتحرك بداخله، وهي المنظار الذي نظر منه في دراسته عن (الرمز في القرآن) . . . .

تمهيد لابد منه..

❖ وفي مقال الأمس قلت تمهيداً لمقال اليوم «هكذا تكلم النيهوم»:

❖ «الحقَّ أقول لكم . . إنني تحرزت أن أقف هذا الموقف الذي أعطي فيه «صورة من قريب» ـ وإنني أغبط الأخ محمود الهتكي الذي تستحمل أعصابه أن يقوم بهذه

المهمة كل أسبوع ومع أشخاص يختلفون من مرة إلى مرة عنه يخالفون في مرات عديدة ـ لما دار «وراء الكواليس» من مناقشات مطولة متتابعة استغرقت الساعات وقد تشغل من جريدتكم (الرائد) الغراء حيزاً كبيراً، وقد تدخلنا في تفاصيل هي خطوات الطريق التي قد تتسع أو تضيق، وتسرع أو تتريث ـ على ألا ننسى المنهج، وعند المفترق الحاسم لابد من العودة إلى المنهج . . . » .

❖ وبعد أن ذكرت بالمنهج، والذي كل أمنيتي أن اقطع فيه شوطاً من خلال هذه المقالات، **عاهدتكم أنني سأُدْلي بشهادة عما تكلم فيه النيهوم في جلساتنا الخاصة** التي كنت فيها أتثبت منه وأحاوره وأجادله بالتي هي أحسن . . .

❖ وقد كنت تعهدت أن تكون شهادتي عن «**خلفية النيهوم**» في أكمل منطق، وأبلغ صورة، وأقوى حجة يقدرني عليها الله وأرجو ألا يتسرع البعض من المسارعين إلى الإفتاء (!) فيتصيَّدوا الفرصة قائلين: إنه يقر رأيه = ومن يدري فقد يكون رأيه مما يعجبهم أو لا يعجبهم، وقد يكون مما لا يعجبني أيضاً، ولكنني سأعرضه بأكمل منطق أستطيع وأبلغ صورة أملك وأقوى حجة أقوى عليها!

وليس هذا حماساً للرأي أو إقراراً له أو اقتناعاً به أو ترويجاً له، بل تمهيداً لمناقشته ونقده وإقراره أو نقضه، تماماً كمسلك القرآن الكريم ـ ولله المثل الأعلى ـ حين يعرض لأراء لا يقرها، فهو يعرضها في أحكم منطق وأبلغ أسلوب وأقوى حجة ـ وكيف لا؟! والقرآن كله معجز ـ ولكنها لا تلبث أن تتهافت ويبين بطلانها إذا ما كشف زيفها وعراها من بهرجها وأقام ضِدَّها الحجة والبرهان.

هكذا تكلم النيهوم..

أرجو أن يأذن لي الأخ الصادق النيهوم أن أحاول (نقل) ما سمعت منه في جلسات أرجو ألا أكون قد أثقلت عليه فيها بالمجادلة، ومن قبل أرجو أن أكون قد كنت فيها مستمعاً جيداً. . .

❖ **الأخ الصادق** يبحث عن كبريائه ويخجل من امتهان نفسه، وهو في سبيل ذلك شديد التعلق بالله، إذ إنَّه عندما يواجه الكون العملاق بروح الله يشعر أن هذا

الكون العملاق بأسره يتحرك بداخله مثل نملة . . . « انظر هنا في صدري . . افتح عينك وانظر هنا إنَّ الكون العملاق بأسره يتحرك داخلي مثل نملة» وعندئذ يصيح النيهوم «فدعني أبحث عن كبريائي» وذلك بعد أن كان يقول «فأنا أكاد أن أذوب من الخجل في قبضة هذا الكون العملاق المتناهي الفخامة والنظام» . . .

فالنيهوم يهمه أن يرفع قامته ويكف عن الإحساس بالضآلة !

وهو في سبيل هذا على استعداد أن يشق طريقه إلى الله عبر نفسه ولو هجر الآخرين وقطعه بمفرده ، رغم (أن الطريق يبدو أكثر طولاً عندما يضطر المرء إلى أن يقطعه بمفرده) ، وهو يريد أن يتعلم كيف يتعامل مع العالم بروح الله . . .

فالله ـ كما هو على رأي صاحب العقل المؤمن ـ هو الحقيقة الفكرية الكبرى الأولى التي يستنتجها العقل من الطبيعة ويرتاح بالوصول إليها من ألم الفراغ والشك والجحود والإنكار .

❖ **وبدون الله يشعرك النيهوم أن نفسه تتألم للفراغ** الهائل للكون والوحشة والظلمة وتضيع بين جبروت القوى العمياء الصماء الخرساء في الطبيعة ، **وهو يحدثك عن السنوات السوداء التي** قضاها ميتاً يبحث مع الأموات في وجه العالم المجدور !

❖ **والنيهوم بعد أن يطمئن** إلى أنه استنتج أو اكتشف الحقيقة الفكرية الكبرى الأولى ، واحتضن هذا الكون في صدره ، يريد أن يتعامل معه بروح الله **فتتحول المادة في عقله وذوقه إلى روح شفيف وأداة دهشة** وعجب وتفكير واكتشاف !

«وما سنن الله والقوانين الطبيعية إلا الأعاجيب التي أودعها الخالق في المادي للكون ، ولا يفرغ العقل والقلب في أي لحظة من لحظات وعيهما من شعاع يسقط على عدستها من أي أفق من آفاق المادة ، فيثير الانتباه والعجب والعبادة !» وإذا خطر لك أنك قد تستطيع أن تتجاهل هذه الحقيقة فلا تنسى أن تقلع عينيك معاً ، لأن كل شيء يقع عليه نظرك في سقف العالم سوف يذكرك بها» . . .

والأخ النيهوم يحدثك بلغة صاحب العقل المؤمن عن أن «الكون في اتساعه ورحابته الهائلة من الأوج إلى الحضيض ، يسير بنظام واحد في الذرات الصغيرة

والمجرات الكبيرة، بمليارات نجومه وأفلاكه، هو الجسد الذي لا لهو فيه، والحق وموازين القسط. . . . ».

❖ **والأخ النيهوم** بنفس هذه الروح يرى أن الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها.

«والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني قانوناً خاصاً بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة (من الوثنيات البدائية إلى الإسلام الموحد) حول مركز واحد، يخطف سناه الأبصار، وهو حافل بالأسرار. . . إلى الأبد».

❖❖ **وبالمناسبة، فإن الأخ النيهوم يعطي اهتماماً خاصاً لسورة الإخلاص باعتبارها قمة التوحيد، وإشارة اكتمال الظاهرة الدينية، ودلالة أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين!**

❖ وهذه الطبيعة الثابتة والفطرة المسنونة والسبيل المطروقة من قديم «ما كان للدين القيم أن يهدرها ولا يحسب حسابها فيما يوجهه إلى العقل من رسالات روعي فيها أنها هدي للفطرة التي فطر الله الناس عليها في جميع العصور، وأنها لابد أن تأخذ بقيادهم إلى التعرف إلى (الله الكائن الأكبر الخالق) بأيسر الوسائل وأجْدى السبل. . .

❖ **والأخ النيهوم بعد ذلك يرى** «وقد جعل القرآن لبنات البناء المادي للكون ومشاهدها وأسرارها وقوانينها صوى وعلامات على طريق التعرف إلى الله الخالق، وجعلها وسائل وأدوات لفهم ما عنده وعند الملأ الأعلى من عالم ما وراء المادة، فتندرج عقولنا على مستويات هذه الأبجديات وعلى إدراك النسب الكثيرة بين مفرداتها وكلماتها، حتى إذا فرغت منها، وامتلأت بعلومها، وحذقت الصنعة فيها ورأت مواقع يد الخالق بها وتوقيعه على أشيائها، وتتلمذت عليه في تعلم ما يشاء أن يحيطوا بعلمه وفي تسخير ما يشاء أن يسخروا، ويقدروا عليه من كونه. . . حين ذلك كله، لعل عقولنا تكون قد حلمت لإدراك ما وراء البناء المادي للكون، ولإدراك علم عقلي عن السر الأكبر الذي يعمر وراءه!».

❖ **والنيهوم - أخيراً -** يرى أن القرآن الكريم وقد جاء اكتمالاً للظاهرة الدينية ومنهاجاً مفتوحاً وهدياً على طريق التعرف إلى الله وفهم ما عنده وعند الملأ الأعلى من عالم ما وراء المادة - على النحو الذي ذكرناه.

«**إن هذا القرآن الكريم لا بد أن يجد فيه المفكرون في كل عصر ما يواجهون به مستحدثات الآراء** التي تحاول حرمان العقل من مصادر اليقين والطمأنينة وموارد الحياة الفكرية الرشيدة، في رحاب الربانية والاعتزاز بالانتساب إليها، والاستمداد من مواهب الله الخالق والأنس به وبالحياة معه، ومعاملته بمنطق واحد هو المنطق الذي يقوم عليه بناء الوجود، والإيمان بالمصير إليه وامتداد الحياة معه فيما بعد البعث على مدى الآباد...».

بهذا المنطق انتهى النيهوم إلى الرمز وإلى......

وهكذا، فأنت ترى أن النيهوم استناداً إلى هذه الخلفية قد انتهى لموضوع بحثه عن الرمز في القرآن، **فخلفية تلك معطياتها لابد منتهية إلى القول بالرمز.... سواء لأنها أنكرت المعجزة** استناداً إلى القول «وهذه، **الطبيعة الثابتة، والفطرة المستوِية**، والسبيل المطروقة من قديم، **ما كان للدين القيم** أن يهدرها ولا يحسب حسابها فيما يوجهه إلى العقل من رسالات...»، **أو سواء ذهبت إلى ربط فهم القرآن** بان (يجد فيه المفكرون في كل عصر ما يواجهون به مستحدثات الآراء...) **أو سواء أرتأت أن العقل على مدخل منطق جديد عصري** لتفسير النبأ العظيم لهذا الكون العظيم!

والى لقاء..

ناقِش فيه النيهوم، ونواصل فيه السير بمنطق العقل وموازين الحق والباطل التي هي في الضمير البشري هي هي التي تحكم الكون، وهي هي إرادة العقل الأكبر الذي يحكم الكون والحياة والإنسان ولا تحكمه!!!!

النيهوم **أخطأ.. وأخطأ.. وأخطأ...**

- النيهوم **أخطأ المنهج العلمي..**
- النيهوم **أخطأ المنهج الأدبي** في التفسير..
- النيهوم **أخطأ بعدم إلمامه بأقوال المفسرين...**

VI

أخطأ النيهوم المنهج العلمي حتى لو سلمت له خلفيته . .

لا أريد هنا أن أتعرض لخلفية النيهوم الفلسفية، التي عرضتها في مقالي الأخير، بالنقد والتقرير، وإنما سأفترض جدلاً أن خلفيته الفلسفية سليمة، ولنفرض أن معطيات خلفيته الفلسفية قد انتهت إلى الغرض الذي يرفض المعجزة ويقول ـ بلغة الأخ النيهوم كما (نقلها) الأخ الهتكي ـ «الآيات الكريمة يمكن تفسيرها باعتبار أن المسيح قد ولد ولادة عادية مثل أي طفل بشري آخر. . وعاش حياة عادية . . . ».

ـ فهل كان للأخ النيهوم علمياً أن يفرض فرضيته أو نظريته هذه على القرآن؟!. . أم أن المنهج العلمي نفسه كان يقتضيه اختبار فرضيته والتحقق من نظريته؟!

وكيف كان يستطيع النيهوم أن يتحقق من صحة أو عدم صحة ما ذهب إليه؟!

❖ **المنهج اللغوي الأدبي للتفسير خير عون . . .**

وبما أنني أعتقِد أنا جميعاً نتفق على أنه لا يجوز لإنسان ما أن يفرض رأياً على أي نص أدبي، لذلك فإنني لازلت أذكر ما لا أنساه أبداً، منذ اليوم الذي كتبت فيه أول مقال إلى آخر مقال، من القول «إن الذي يدرس القرآن لا ينبغي له أن يلونه أو يفرض أراءه ومعتقداته، إذ إنَّ الذي يفعل هذا لا يمكنه أن يفهم القرآن فهماً سديداً قائماً على أسس علمية من الدرس والفهم أو تحديد المعنى التحديد المستمد من الألفاظ القرآنية، بل إنني أكاد أقول المطلوب من وراء الألفاظ القرآنية من معنى وغيره».

والأصح عندي، أنَّهُ كان أولى بالنيهوم، أن يرجع إلى الكتاب الكريم ويحاول التعرف إلى صحة أو عدم صحة ما ذهب إليه (أي ما ذهب إليه النيهوم) من عدم وجود معجزة وإمكانية أو عدم إمكانية تفسير الآيات الكريمة «باعتبار أن المسيح قد ولد ولادة عادية . . . ».

والمنهج اللغوي الأدبي للتفسير خير عون لاختبار صحة الفرضيات أو عدم صحتها، ومنهجنا هذا يقوم على التدرج في مستويات:

أولها: أن نقف على النصوص التي يراد درسها وان نجمّعها..

ثانيها: أن ندرس ما حولها دراسة تبين تاريخ حياتها وتوضح الظواهر العقلية والعاطفية والفنية المحيطة بها..

ثالثها: أن ندرس هذه المواد تحقيقاً وضبطاً لننتهي إلى دلالات الألفاظ وفهم النصوص...

والفهم على نوعين:

الفهم الحرفي: هو الذي يقوم على دراسة معنى الألفاظ والتراكيب والجمل. والنظر في المركبات يقتضينا الاستعانة بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغه وما إليهما، ولكن لا على أن الصنعة النحوية عمل مقصود لذاته، «ولا يكون التفسير كما كان الحال قديماً، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، والنظر في إتقان معاني القراءات المختلفة للآية الواحدة، والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله».

كما يقوم الفهم الحرفي على توضيح العلاقات الغامضة والإشارات التاريخية... وكل تلك أمور تتوقف إلى حد كبير على ثقافة الدارس... تلك الثقافة التي شَرَطَها بالنسبة لموضوعنا هذا المفسرون في المفسر، والتي حدد ميادينها الأصوليون في مقدمات كتبهم.

أما الفهم الأدبي: فهو النظرة البلاغية في المركبات، ولكن لا على أساس النظرة الوصفية «التي تعني بتطبيق اصطلاح بلاغي بعينه وترجيح أن ما في الآية من كذا وكذا، أو إدراج الآية في قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر... كلا، بل إن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني، وتستبين معاني هذا الجمال، وتستجلي قسماته، في ذوق بارع، قد استشف خصائص التراكيب العربية.. مُنْظَماً إلى ذلك التأملات العميقة في التراكيب

والأساليب القرآنية بمعرفة مزاياها الخاصة بها بين أثار العربية، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته فناً فناً».

وقد قلنا: إن هذا الفهم يقتضي العيش في خلال القرآن ومعرفة الأساس الفني البلاغي الذي ينظم قصص ـ القرآن ـ وقد تكون دراسة الرمز مما يدخل في هذه الدراسة.

النيهوم خذل المنهج فخذله المنهج

والأخ الصادق النيهوم لم يكتف بخذلانه للمنهج العلمي الذي كان يقتضيه اختبار فروضه والتحقق من نظرياته بدلاً من فرضها، بل إنه حاول أن يخذل المنهج اللغوي الأدبي، فلم يجمع مواد دراسته ولم يحقق دلالات الألفاظ، على نحو ما أوضحنا في مقالنا الثاني بتاريخ 19/ 3/ 1969 وفي مقالنا الثالث تحت عنوان «**ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون**» وسنواصل ذلك في مقالنا هذا عند إيرادنا أقوال المفسرين في قصة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام...

ـ وعلى العموم، فقد خذل النيهوم المنهج فخذله المنهج....

المنهج يخذل النيهوم ويثبت قول القرآن بالمعجزة

ولست هنا بمثبت منطقية وعقلانية «المعجزة»، فذلك موضعه مكان آخر من الحديث، إنما يهمني هنا أن أوضح أن **الدراسة المتفهمة التي تتبع المنهج اللغوي الأدبي في تفسير القرآن واجدة في آياته المحكمة الصريحة ما هو نص في إثباته للمعجزة**، و«القرآن المعجز الدائم يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة، وعصا انقلبت حية، وطير خرج من طين، وعن كثير من الآيات بحديث لا يقبل تأويلاً ولا تخريجاً غير ما يحتمله الفقه».

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾!!! (سورة الإسراء، الآية 59).

قال المفسرون في قصة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام .

وأخطأ النيهوم أيضاً بعدم إلمامه بما قال به المفسرون في ما ضرب لنا مثلاً (!) ونسى(!) أو تناسى أن الله قد ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، وأنَّ للقرآن أسلوبه البلاغي الذي ينظم قصصه، فلا يليق بنا إلا أن نعرف كيف يضرب الله لنا الأمثال، وقبل ذلك يجب أن نحاذر ضرب الأمثال خشية أن نضل فلا نستطيع سبيلاً، وخشية أن يكون ما نضرب من مثل إلاّ جَدَلاً ثم إنَّهُ لا يليق بنا أن نضرب لله الأمثال وإن الله يعلم ونحن لا نعلم، ولابد لنا أن نعلم حتى نعقل أمثاله ونتفكر ونعتبر بقصص القرآن. . .

وخلاصة القول في هذه التوطئة أنه كان يجب علي الأخ الصادق النيهوم أن يستمع ولا يصد لما ضرب (ابن مريم) مثلاً، كان يجب على الأخ الصادق النيهوم أن يعرف أقوال المفسرين وأن يستمع للمثل ولا يصد عنه نفسه وأن يعلم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، الآية 43).

فماذا قال العالمون؟!

وقبل أن أعرض لخلاصة مما أورده العالمون في قصة ميلاد عيسى بن مريم أود أن أرجو القارىء الكريم إن أمكنه أن يعود بذاكرته إلى ـ أو يعيد قراءة ـ مقالي الذي نشرته بجريدة الرائد الغراء في 22/ 3/ 1969 تحت عنوان «ذلك عيسى **بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون**»، الذي أعتبِرُهُ مقدمة لا بأس بها في هذا الموضوع.

وأعتذر للقاري الكريم إذا تجاوزت ووضعت عنواناً عاماً يفيد وكأنني اطلعت على أقوال المفسرين كافة، وأنا لم أطلع إلاّ على:

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

2 ـ تنزيه القرآن عن المطاعن، إملاء قاضي القضاة عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار ابن أحمد.

3 ـ تفسير الكشاف عن حقائق معاني التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجاد الله محمود بن عمر الزمخشري.

4 ـ أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي.

5 ـ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

6 ـ تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

7 ـ تفسير الإمامين جلال الدين محمد بن أحمد المحلي والشيخ جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.

8 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبو سعيد عبد الله البيضاوي.

9 ـ المصحف المفسر، للأستاذ محمد فريد وجدي.

10 ـ تفسير القرآن الكريم، للشيخ محمود شلتوت.

11 ـ في ظلال القرآن، للمرحوم سيد قطب.

12 ـ التفسير الحديث، للأستاذ محمد عزة دروزه.

مزيد اعتذار

ورغم أنني اشعر أنني من أهل زمان أوتوا من العجز والتهاون أضعاف ما أوتي أسلافهم من الجد والقدرة، إلا وأنا أرى أن **التجديد هو قتل القديم درساً وبحثاً**، فإنني اعتذر لأنني لم أبذل الجهد وأتابع تفاسيرنا العديدة المختلفة الألوان، ولعل **عذري أنني ألاحق كتابة موضوع على صحيفة سيارة، وأختَلسُ له من وقت راحتي ونومي**، إذ إنَّ **ماعدا ذلك من حق غيري**!

هذا كما أعتذِر لأشياخي وأساتذتي، الذين اتخذت منهم عدتي لفهم ما استغلق عليّ من أمر التفسير، وليس في استطاعتي أن أثقل عليك ـ أيها القارىء العزيز ـ بذكرهم، وهم كثيرون وميادينهم متعددة، **فمنهم** من كان مرشدي لفهم خصائص العربية ومنهجها الأصيل، **ومنهم** من كان مفتاح كنوز الإعجاز وأسرار التأويل، **ومنهم** من دلني إلى تاريخ القرآن وعلومه، ومنهم من فتح أمامي آفاق

الدراسات المقارنة بين الآداب والأديان، **ومنهم** من أخذ بيدي إلى مناهج التجديد. . . . الخ.

فجازاهم الله عنا كل خير، وأفاد بهم شباب العرب والمسلمين.

وعذري الأخير، أنني سأقف بك هنا لنواصل الحديث في لقاء قريب عما قاله أولو العلم من المفسرين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين.

VII

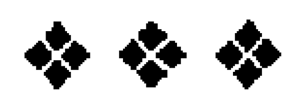
قال المفسرون في قصة ميلاد عيسى ؟!

أود ـ أيها القارىء الكريم ـ وقبل أن نواصل رحلتنا أن أذكرك أنّنا توقفنا في مقالنا الأخير عند الإشارة إلى أنَّه كان أولى بالأخ الصادق النيهوم أن يرجع لأقوال المفسرين ـ بعد أن أشرنا إلى أنه أولى به ، حتى لو سلمت له خلفيته ، ألا يفرض وجهة نظره في رفض المعجزة على القرآن ، كما أشرنا إلى أنَّهُ كان أولى به أن يتخذ العدة لفهم القرآن على منهج أصّلناه في مقالاتنا السابقة .

واليوم نعطي مزيداً من الإيضاح لقولنا : إنَّهُ **كان أولى بالأخ الصادق أن يفيد من أقوال المفسرين ، وسنختار من أقوال المفسرين تلك الأقوال التي كانت تجنب الأخ الصادق أن يكون من الذين (يمترون) في عيسى بن مريم** (!)

فإذا كان الأخ الصادق ـ وبعد تسليمه «أنَّ فكرة المفسرين المسلمين عنده تتفق تماما مع قيمة الفكر التجريدي المتزن . . فالله على كل شيء قدير . . وقدير أيضاً على خلق المسيح بدون أب . . ومدِّه بالمعجزات الخارقة . . . » **إنما يهدف فقط إلى** أن «**الآيات الكريمة يمكن تفسيرها باعتبار أن المسيح قد ولد ولادة عادية** مثل أي طفل بشري آخر . . وعاش حياة عادية . . الأمن ترجح رسالته العظيمة . . وأنَّ ذلك داخل في نطاق الفهم البشري . . . » .

أقول **إن كان هذا ما هدف له الأخ الصادق ـ ورغم أننا لا نأخذ به** وسنوضح في مقالات تالية أوجه معارضتنا وأوجه الخلل التي نراها تدفع إلى مثل هذا التصور ـ فإنه أيضاً **كان في حاجة إلى أقوال المفسرين** ، فهو واجد فيها ما يساعده على جزء كبير من افتراضاته التي دفعه إليها إنكاره للمعجزات وتصوره أنها منافية للعقل والقانون الكوني ، وذلك دون حاجة إلى ما تبناه من دراسة للرمز في القرآن . . .



ولنبدأ من حيث بدأ الأخ الصادق النيهوم، فنتناول الحديث عن الكفالة وامتداد زمنها، ثم نتناول قصة ميلاد عيسى ومعجزاته، لننتهي إلى وفاته ورفعه. . . .

❖ ويقول الزمخشري في كشافه وهو يفسر قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ. . .﴾ (سورة آل عمران، الآية 45).

«ويجوز أن يبدل ـ أي أن تكون (إذ قالت) بدلاً ـ من (إذ يختصمون) على أن الاختصام والبشارة وقعاً في زمان واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا.

❖ **ثم نجد في قصة الميلاد. . ابتداءً** من النفخ فحملها، **مروراً** بانتباذها مكاناً قصياً إذ جاءها المخاض، **وانتهاءً** بالميلاد ومجيئها قومها تحمله. . . ـ أقول **نجد أقوالاً للمفسرين نختار منها للأخ الصادق ما يلي:**

❖ **أورد القرطبي في تفسيره** (وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل، لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرحام الأمهات فإذا اجتمع الماءان صارا ولداً، **وإن الله جعل الماءين جميعاً في مريم، بعضه في رحمها وبعضُه في صلبها، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها**، لأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحبل، فلما **هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها فاختلط الماءان فعلقت** بذلك»!

❖ ولابد لنا هنا من الإشارة إلى ما أورده القرطبي أيضاً من تعليقه على ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ. . .﴾، فقد أورد «وقيل ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد: أمن قبل زوج في المستقبل أم يخلقُهُ الله ابتداءً؟».

❖ وفي تفسير قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ. . .﴾ (سورة مريم، الآيتان 22 ـ 23) **أورد ابن كثير: «فالفاء وان كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه** كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ

خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ (سورة المؤمنون، الآيات 12 ـ 13 ـ 14) فهذه الفاء للتعقيب بحسبها».

❖ **وأورد الزمخشري في تفسيره** ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ «وقيل: كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل: حملت من الزنا، خاف عليها قتل الملك، فهرب بها.....».

❖ **وأورد ابن كثير** القول بأنه «وقال وهب بن منبه ذهبت هارية، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق....».

❖ **وأورد ابن كثير** في حديثه عن النخلة «وقيل مثمرة، قال مجاهد: كانت عجوة».

❖ وفي تفسير قوله تعالى ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ... ﴾ قال ابن عباس: المراد بـ(من) جبريل، «**ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها**».

❖ **وأوردت التفاسير** أن (السري) في قوله تعالى ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ إنما يقصد به ـ وعلى رأي الجمهور ـ الجدول الذي كان قريب جذع النخلة...

❖ فإذا أضفنا إلى هذا **ما أورده ابن العربي في أحكام القرآن** في كون قوله «**هزي إليك بجذع النخلة**» إنما هو «**أمر بتكليف الكسب في الرزق**»، وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب، كما قال تعالى ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (سورة آل عمران، الآية 37).

قال علماؤنا: «**كان قلبها فارغاً، ففرغ الله جارحتها عن النصب، فلما ولدت عيسى، وتعلق قلبها بحبه، وَكَلَها الله إلى كسبها**، وردها إلى العادة في التعلق بالأسباب».

❖ وإذا ما أكملنا صورة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام **بما أورده القرطبي** من قول الكلبي «ولدت حيث لم يشعر بها قومها، ومكثت أربعين يوماً للنفاس، ثم أتت قومها تحمله»!

❖ وإذا ما ذكرنا أن (الفاء) وان كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه، وحسب تكلف الكسب في الرزق والأكل من الثمرات والشرب من السري والاطمئنان النفسي أمر فترك تقديره. . .

❖ وإذا ما التفتنا إلى **ما أورده القرطبي** في تفسيره لقوله تعالى ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ حيث قال: رُوِيَ أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي (!) الذي كانت انتبذت فيه.

❖ **بعد كل هذا، وبعد تذكر قول ابن عباس** «ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها»، يستقيم لنا فهم كون عيسى بن مريم قد كلم الناس في المهد وكهلا.

❖ وقد **لاحظ القرطبي** أنه «لو كان يدوم نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته في صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا ينكتم»!

❖ ويذهب **الزمخشري** إلى «وكهلا» عطف عليه ـ أي عطف على «في المهد» في محل النصب على الحال ـ بمعنى: «ويكلم الناس طفلاً وكهلاً، ومعناه: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي سيتحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء».

❖ ويذهب **الطبري في تفسيره** إلى إن الله إنما أخبر بهذا من أمر المسيح احتجاجاً به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى الباطل، وأنه كان (منذ أنشأه) مولوداً طفلاً ثم كهلاً، يتقلب في الأحداث يتغير بمرور الأزمنة عليه والأيام، من صغر إلى كبر، ومن حال إلى حال، وأنه لو كان، كما قال الملحدون فيه، كان على ذلك غير جارٍ عليه.

والخلاصة أنه «أعلمهم أنه كان كسائر بني أدم».

❖ حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال محدثنا سعيد، عن قتادة: «يكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين»، يقول: يكلمهم صغيراً وكبيراً.

❖ حدثني المثنى قال، حدثنا إسحاق قال محدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع: «ويكلم الناس في المهد وكهلاً» وقال: يكلمهم صغيراً وكبيراً.

❖ **وأورد القرطبي في تفسيره** (كيف نكلِّمُ من كان في المهد صبيا) عدة أقوال. . . منها: والصحيح أن (من) في معنى الجزاء و«كان» بمعنى يكن، والتقدير من يكن في المهد صبياً فكيف تكلمه؟! كما تقول كيف أعطى من كان لا يقبل عطية، أي من يكن لا يقبل.

«وقيل: المعنى كيف تكلم من كان سبيله أن ينام في المهد لصغره».

❖ أما الحديث عن تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإعداده لأن يجعله الله نبياً فلا تعتقد أنه محل جدل، على أن نذكر دوماً أنه عبد الله آتاهُ الكتاب وجعله نبياً. . .

❖ **جاء في إنجيل متى وذكره برنابا** (1) ولما مات هيرودس ظهر ملاك الرب في حلم ليوسف قائلاً (2) عد إلى اليهودية لأنه قد مات الذين كانوا يريدون موت الصبي (3) فأخذ يوسف الطفل ومريم (وكان الطفل بالغاً سبع سنين من العمر) وجاء إلى اليهودية حيث سمع أن أرخيلاوس بن هيرودس كان حاكماً في اليهودية (4) فذهب إلى الجليل لأنه خاف أن يبقى في اليهودية (5) فذهبوا ليسكنوا في الناصرة (6) فنما الصبي في النعمة والحكمة أمام الله والناس (7) ولما بلغ يسوع اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى (8) ولما تمت صلواته انصرفوا بعد أن فقدوا يسوع لأنهم ظنوا أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم (9) ولذلك عادت مريم مع يوسف إلى أورشليم ينشدان يسوع بين الأقرباء والجيران (10) وفي اليوم الثالث (!) وجدوا الصبي في الهيكل (!) وسط العلماء يحاجهم في أمر الناموس (11) وأعجب كل أحد بأسئلته وأجوبته قائلاً: كيف أوتي مثل هذا العلم وهو حدث ولم يتعلم القراءة؟(12) فعنّفته مريم قائلة يا بني ماذا فعلت بنا فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيام ونحن حزينان (!) (13) فأجاب يسوع ألا تعلمين أن خدمة الله يجب أن تقدم على الأب والأم (14) ثم نزل يسوع مع أمه ويوسف إلى الناصرة (15) وكان مطيعاً لهما بتواضع واحترام.

❖ قال تعالى في سورة آل عمران ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

❖ وقال تعالى في سورة مريم ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

❖ وقد سكتت الأناجيل عن المسيح من عهد أن كانت سنه اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ تِسْعاً وعشرين .

❖ وصدق الله العظيم إذ يقول «ويكلم الناس في المهد وكهْلاً» !

❖ **ثم نجد رواية برنابا** في الفصل العاشر عن (يسوع ـ وهو ابن ثلاثين ـ يلتقي على جبل الزيتون الإنجيل من الملاك جبريل) **وهي تجري على الوجه التالي** :

(1) ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر كما أخبرني بذلك نفسه صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً (2) وبينما كان يصلي في الظهيرة وبلغ هذه الكلمات «يا رب برحمة . . . » وإذا بنور باهر قد أحاط به وجوق لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون «ليتمجد الله» (3) فقدم له الملاك جبريل كتاباً كأنه مرآة براقة (4) فنزل إلى قلب يسوع الذي عرف به ما فعل الله وما قال الله وما يريد الله حتى إن كل شيء كان عرياناً مكشوفاً له (5) ولقد قال لي : صدق يا برنابا أنِّي أعرف كل نبي وكل نبوة . وكل ما أقوله إنما قد جاء في ذلك الكتاب (6) ولما تجلت هذه الرؤيا ليسوع وعلم أنه نبي مرسل إلى بيت إسرائيل كاشف مريم بكل ذلك قائلاً لها : إنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله وإنَّهُ لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويخدمها (7) فلما سمعت مريم هذا أجابت (يا بني إنِّي نبئت بكل ذلك قبل أن تولد فليتمجد اسم الله القدوس) (8) ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبوية .

❖ قال تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . ﴾ .

❖ **أما عن المعجزات** فنعرض **لقول بعض المفسرين** في آيات المائدة ، فنجد **ابن كثير** يورد القول : إن المائدة ، لم تنزل ـ إذ لم ينص القرآن على نزولها بالفعل ،

وأن الطالبين للمائدة قد عدلوا عن طلبها، إذ سمعوا الله ينذرُ بهذا العذاب المنقطع النظير لمن يكفر بعد نزولها:

«. . . عن مجاهد قال: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء. . . وعنه: مائدة عليها طعام أبوها حين رضي لهم نزولَ العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم. . . وعن الحسن: لما قيل لهم (عن العذاب) قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل. وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متوافراً ولا أقل من الآحاد».

❖ **ومن المناسب أن نورد ملاحظة الأستاذ فتحي عثمان** إنَّ «آيات القرآن قد سكتت عن نزول المائدة فعلاً، ومن الجائز أن القوم قد انصرفوا عنها بعد النذير، خاصة وأنَّ طالبيها هم حواريو المسيح الذين يؤمنون بالله ويخشون عذاب الآخرة».

❖ وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قالَ: قالت قريش للنبي ادع لنا ربك أن يجعل (الصفا) ذهبا ونؤمن بك! قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. . . فدعا، فأتى جبريل وقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. ـ قال: باب التوبة والرحمة!!

❖ **أما في خاتمة أمر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام** فيكفينا أن نتذكر قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

وقد قال تعالى في سورة آل عمران ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وهكذا...

لو كان هدف الأخ الصادق النيهوم هو إعادة المسيح إلى العالم الإنساني البسيط تأكيداً لمبادىء القرآن نفسه...

ولو كان كل ما يهم الأخ الصادق النيهوم هو أن يجعل الإنسان يعرف أن عيسى المسيح الذي رفعته الثقافات البدائية إلى مصاف الآلهة - أو أنصافَ الآلهة - إنما كان في **الواقع مجرد بشر نبيٍّ**....

- **أقول لو كان هذا هو هدف الأخ الصادق النيهوم، وكان يستهدف أن يفهم قصة ميلاد المسيح وحياته في حدود التفسير العقلي العادي أو العلمي، لكان في حاجة إلى العودة إلى التفاسير**، ولأسعفته وجنبته أن يرمي أنها أتت شيئاً فرياً أو أنها أتت ببهتان افترته بين يديها ورجليها!...

مالا يقول به المفسرون ومالا نقول به..

ونحن **لم نجد من يقول، ولن نقول أبداً، إنه تجوز المماراة** في **عيسى بن مريم**، أو القول على أمه مريم البتول، التي أحصنت فرجها، ورميها بأنها أتت بهتاناً عظيماً، تماماً كما نرفض قول القائلين على الله شيئاً إداً...

والى لقاء

- نحدثك فيه عن:

منطقة الخطأ في خلفية النيهوم الفلسفية

- ونعود بك إلى:

المنهج اللغوي الأدبي النفسي المقارن في التفسير.

القصص في القرآن الكريم.

[وهنا سنعطي رأينا الخاص في قصة ميلاد عيسى بن مريم وكيف كان يجب النظر إليها بمقاصدها وتجنيب الناس فتنة اتِّباعِ المتشابه والافتراء في عيسى بن مريم عليه السلام]، ثم نختم برأي في دراسة الرمز في القرآن الكريم...

والله المستعان، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

VIII

منطقة الخطأ في خلفية النيهوم الفلسفية

ـ مقدمات لابد منها . .

ـ الفكر بين المذهب المادي والمذهب الغيبي . .

ـ التفكير والمعرفة واللغة والعلم . .

ـ التفكير العلمي والمادية الجدلية . .

اليوم موعدنا لنتبين «**منطقة الخطأ في خلفية النيهوم الفلسفية**» . . تلك الخلفية التي **سبق لنا عرضها في مقالنا (هكذا تكلم النيهوم؟!)** والمنشور بالرائد الغراء في 26/ 3/ 1969 .

ولعله من المنطقي أن أفترض أن القارىء الكريم لازال يذكر ـ أو لعله يعود بذاكرته أو يعود لمطالعة ـ ما جاء في المقال المذكور، والذي حرصنا أن يكون عرضه في أوضح صورة نستطيع، وأحكمها منطقاً نملك، وأبلغها أسلوباً نقوى عليه .

كما أعتقدُ أنَّهُ من المنطقي أن أستأذِن القارىء في أن أُضَمِّن مقالتي اليوم، والتي أحاول فيها تسليط الأضواء على «**منطقة الخطأ في خلفية النيهوم الفلسفية**»، بعضاً من الشرح الوافي لما أعتبرُهُ الخلفية الإسلامية الحقة التي تنبغي للمسلم في العالم المعاصر . .

ولا يفوتني أن **ألاحظ مرة أخرى** أنه يهمني أن نتفق أنه «**ليس فيما أكتب ملاحظاً أي إنكار للحق الطبيعي للحي في أن يفكر ويقول، وأنَّهُ لحق عرفنا الإسلام يقرره ويحميه . . .**» .

وبعد....

فإنني أستأذِنُ الأخ الصادق النيهوم في أن (نحرر) موضوع المناقشة . . .

❖ **ورغم أن الأخ الصادق أظهر دوماً** أنَّنا لا نختلف في تصورنـا للإنسـان المفكـر (!) ولا نختلف في طريق تعرفه إلى عالم الشهادة. . أو العالم المادي من كون وحياة الخ. . .

❖ **ورغم أن الأخ الصادق أظهر دوماً** إيمانه المطلق بأن الله هو الحقيقة الفكرية الكبرى التي يستنتجها العقل من الطبيعة ويرتاح بالوصول إليها من ألم الفراغ والشك والجحود والإنكار. . .

❖ **ومع أن موضوع المناقشة كان يمكن أن (يحرر) في موضع واحد هو: ما هي طريق الوصول إلى حقائق عالم (الغيب)؟ وما هو الوحي الإلهي والنبوة؟...**

❖ ومع أنني كنت أستطيع ـ إن اكتفيت بحصر المناقشة في طريق الوصول إلى حقائق عالم (الغيب) والوحي والنبوة ـ أيضاً **أن أدمج الحديث عن (المعجزة)** في هذا الجانب، **باعتبارها جزءاً من ظاهرة النبوة**. . . .

[إلا أنني...

إلا إنني رأيت **أن نبدأ النقاش من البداية، فنتحدث عن الإنسان المفكر وكيف يكتسب المعرفة**، وما **هو تفسير أصل الكون والحياة والإنسان** الذي نرتضيه، **فنعرض للفرض المادي ونناقشه، وننتهي للفرض الغيبي ونحققه**، فإذا انتهينا إلى أنه الحق. . بدراسة **ظاهرة النبوة**، فإن طريقنا إلى عالم الغيب سيكون سهلاً ميسوراً. . .

[الفكر بين المذهب المادي والمذهب الغيبي

ولا أريد أن أثقل عليك ـ أيها القارىء العزيز ـ بمقدمات طويلة عن الفكر والتفكير وصعوبة التمييز بين التعلم والتذكر من جهة، والفكر والتفكير من جهة أخرى.

كما لا أريد أن أنضم إلى القائلين بأن التفكير لا يشمل أكثر من التعلم والتذكر. . .

❖ **ولكن، لنتفق أن التفكير يشمل:**

حلَّ المشكلات، واتخاذ القرارات، والإبداع والتخيل والحلم . . .

ولنسلم أن جانب حل المشكلات هو الذي تعرض للدرس أكثر، وأنَّ هذه الدراسة قد أوضحت أن (التفكير) يمكن أن يدرس كإمكانية للنشاط الإنساني الذي يهتم بخطوات الحصول على المعلومات ـ تلك الخطوات التي يمكن أن تطور إلى (استذكار) لنتائج معروفه لدينا مقدماً ـ وبعمليات خاصة ومحددة (لا نعرفها!) يستنتج معلومات يمكن اعتبارها إلى حدّ ما، أو بوجه ما، جديدة!!!

❖ والمهم هنا ملاحظة هذه العمليات الخاصة والمحددة وكوننا لازلنا لم نعرفها، وان كان البعض يشير إلى «أنَّ العمليات والخطوات التي تشكل التفكير لعديدة ومتنوعة ومعقدة»!

[**وخلاصة** ما سبق . .

«التفكير هو إعمال معلومات سابقة أو الحصول على معلومات من المحيط لإيجاد حل يهدينا سواء الطريق!» .

[التفكير والمعرفة واللغة والعلم..

❖ ويقول (أوجبرن): إنَّ أي ابتكار لا بد أن تسبقه حصيلة من المبادىء الأولية التي تكوّن «الإطار» الفكري .

❖ واللغة أصل المعرفة وأول خطواتها وأهم ركن من أركانها، وقد قيل «إن العلم لغة محكمة البناء»!

❖ ونشأة الألفاظ الأولية غامضة يجعلنا نعدها إلهامية لا سبب لها، وهي ضرورية جداً للمعرفة الإنسانية . .

❖ والعلم بالأسماء أول العلم بالأشياء . .

❖ وصدق الله العظيم إذ يقول «وعلم آدم الأسماء كلها»!

[لنعلق سؤالاً أمام الماديين؟!

ولا تفوتنا هذه المناسبة دون أن نعلق سؤالاً أمام الماديين، فنسألهم: ما هو أصل المعرفة عندكم؟! . . وكيف اكتسب أول إنسان ـ أو أول مجموعة إنسانية ـ

«الإطار الفكري» الذي تحرك ـ أو تحركوا ـ به وأبدع أو أبدعوا. . . ؟!. . بل ما هي نشأة الألفاظ الأولية عندكم؟!. . .

❖ قد يعزون الأمر إلى وقوف الإنسان على رجلين اثنين ـ أو رفعه قامته! ـ مما أعفاه من استخدام فكه وأسنانه، وبالتالي تعطلت هذه الأعضاء، ونجم عن ذلك تقلص العضلات والعظام، واتسع مجال النمو للجمجمة. . وبالتالي المخ. . .

❖ ومع أن التجارب نقضت هذا الافتراض، فاتساع الجمجمة لم يتبعه اتساع في المخ. . .

❖ إلا أننا سنناقش الماديين بوجهة أخرى، وسنسألهم: وماذا بعد اتساع مجال النمو للجمجمة. . . واتساع مجال النمو للمخ؟!. . .

كيف اكتسب الإنسان المعرفة؟!. . وكيف يمكنني أن اعتقد بمبادىء استنتاجاتي، إذا كان الحادث الخارجي هو وحده الذي أودعها في نفسي؟. . وأنّى لأمور هي حصيلة الظروف وحدها أن تكون مفتاح الطبيعة؟. . وكيف كان للحادث الخارجي أن يودع نفساً استنتاجاتها؟. . وكيف للظروف وحدها أن تعطيني حصيلة لأمر ما؟. . وأين «الإطار» المبدئي الذي يمكنني من تلقيها والإفادة منها؟!. . .

ثم انظروا إلى (لينين) ـ وهو من أعظم أمخاخهم! ـ وهو يقول: «ليس الوعي إلا انعكاساً للوجود، وهو في أحسن الأحوال انعكاس صحيح على وجه التقريب»؟!

وإنني لأتساءل: من الذي سيقرر ما إذا كانت الحالة الراهنة، أو الوعي المادي خاصة هو «أحسن الأحوال»؟!

[مزيد من الأسئلة للماديين بين الجدليين:

❖ سيقول الماديون الجدليون: إن هذا خلط بين مادية ساذجة (كمادية هلفيتيوس وهولباخ) وبين المادية الجدلية.

ـ سيقولون:

1 ـ إن ثمة حركة جدلية في قلب الطبيعة. .

2 ـ وبهذه الحركة الجدلية (يصير) الجديد إلى ضده ليندمج في مركب آخر.

❖ ولاشك أن جميعنا يعرف كيف أن فكـرة مـن الأفكـار ـ في فلسـفة هيجـل ـ تستدعي فكرة أخرى، وكيف أن كل فكرة تنتج ضدها.

❖ وإني لأعرف أن باعث هذه الحركة الواسعة هو الجذب الذي يحدثه المستقبل في الحاضر، والذي يحدثه الكل ـ حتى قبل أن يعرف ـ في الأجزاء.

❖ فنحن نعرف أن الديالكيتك يقوم على أساس:

1 ـ أنّ الكل يتحكم في أجزائه..

2 ـ وأنّ الفكرة تميل من تلقاء ذاتها إلى الاكتمال..

3 ـ وأنّ الارتقاء تركيبي متعدد الأبعاد...

فكل فكرة تضم في ذاتها وتتمثل جملة الأفكار السابقة، وبنيـة التصـور ليسـت مجرد تراكم عناصر ثابتة يمكن أنْ تمتد لاقتضاء أن ترتبط بعناصر أخرى لتولد مركبـات أخرى، بل هناك تكامل وانتظام ووحدة...

❖ فنحن ـ وكما يقول سارتر ـ نعرف جدل الأفكار، وأمره معروف لدينا..

ولكننا نريد **أن نقول: إن الديالكيتك حركة مفاهيم، ونحن نتسـاءل عمـا قبل تكوّن المفـاهيم**، وبمعنـى أوضـح، إن قـوام الاغتنـاء الديـالكيتكي (الجدلـي) هـو الانتقال من مجرد إلى واقع، ومن مفهوم إلى نقاش (أو جـدل) وتكاملـه فـي مفـاهيم كلية وهكذا.

❖ ونحن لازلنا في المرحلة الأولى.. مرحلة الملاحظـة والاسـتنتاج ـ أي سـبيل معرفة معلومات عن المحيط من حولنا...

❖ نحـن نقـول ـ والعلـم يقـول ـ إن المـادة قـاطرة تحمـل علـى ظـهرها حركـات وطاقة، وهي محكومة من الخارج، وتخضع لقوى تأتيها دوماً من غـير ذاتـها ـ سـمها (الظروف) إن شئت!!!

وإنَّ العلم، في كثير من الأحيان، يقـرر وجـود علاقـات تابعيـة بـين الظـاهرات ويختار المتحول المستقل وفقاً للسهولة...

ولكن **أوضح خصائص المادة إحصائية، وعالم العلم نفسه كمي...**

والمادة تتألف من عناصر وذرات وإلكترونات وبروتونات ونيوترونات . . . الخ

وهذه العناصر يضاف بعضها إلى بعض دون أن يدخل بعضها في بعض . . .

[**والخلاصة** . . . أنَّ عالم الشهادة والحس ـ وبناء على المشاهدة والملاحظة ـ إنما هو عالم متغير سائر وفقاً لسنن، وحركته وارتباط أجزائه وانتظام قوانينه وسننه إنما هي المظاهر التي يدرسها العلم، **والعلم لا يكثر الجدل حول الجوهر . . بل يقصر الاهتمام بمظاهر الظاهرة وأعراضها دون تحديد للجوهر.**

وقوام الاغتناء العلمي هو المشاهدة والملاحظة والتحليل والتصنيف وفرض الفروض الخ . .

❖ **وعالم العلم إحصائي** يهتم بالعلاقات **وفهم القوانين إحصائياً ومن الخارج!**

❖ **وعالم العلم كمي**، والكمية نقيض الوحدة الجدلية! . . .

ولا يملك العلم أي رمز للتعبير عن الكيفية من حيث هي كيفية . . .

وبالمناسبة، فإنَّ هناك مغالطة أوردها (إنجلز) في حديثه عن التراكم الكمي الذي يؤدي إلى تغير كيفي!

فقد ضرب (إنجلز) مثلاً بغليان الماء وتحوله إلى بخار، متناسباً أن (شعورنا) بالماء الذي يغلى هو كيفية، كما أن (شعورنا) بالبخار المتطاير كيفية . . . «أما إنْ قصد المقاييس الكمية لدى العلماء فإن كلاً من (الحالتين) هي تبدل كمي» . . .

❖ **عالم العلم تحليلي تصنيفي**، وحتى في مجال نظرية دارون فإنَّ التطور انتقائي تصنيفي لا ديالكيتكي تركيبي!

❖ **وأخيراً، ما رأي الماديين الجدليين في «الثابتات العددية»** التي يقول بها العلم؟!

[**السؤال الهام..**

ولنعد للماديين الجدليين، ونعيد كلمة أعظم أمخاخهم! . . لينين ـ وهو يقول «ليس الوعي إلا انعكاساً للوجود، وهو في أحسن الأحوال انعكاس صحيح على وجه التقريب»!

ولنسأل الماديين: إذا كان الوعي الذي هو انعكاس للوجود ـ في أحسن الأحوال (!) لا يعدو أن يكون على وجه التقريب ثمرة جزئية ولحظة من تطور تركيبي تال.

إذا كان الأمر كذلك، وهو (أي الوعي) لا يعدو أن يكون حلقة من سلسلة بدايتها ونهايتها بعيدتان كل البعد، فكيف وبأية ضمانة عرفتم أو (وعيتم) أن الديالكيتك (أو الجدل) هو منهج البحث في بنية الكون والحياة وتاريخ الإنسان؟!..

وبأية درجة من اليقين تتحدثون و «الوعي ليس إلا انعكاساً للوجود، وهو في أحسن الأحوال (!) انعكاس صحيح على وجه التقريب»؟!

[نظرتهم في الفكر تكشفهم..

وهكذا، فإن نظرة الماديين جميعهم، والجدليين منهم أيضاً، تكشف أنهم ضد النزعة العلمية والعقلية السليمة، وهم مثاليون ميتافيزيقيون لقولهم بالديالكيتك المثالي وفرضه على أصل الكون والحياة...

❖ «**وإنني لأتساءل** [بصدد المادي الذي يأخذ على المثاليين أنَّهم إذ يردون المادة إلى الفكر يعمدون إلى الميتافيزيقا..]:

أية معجزة يمكن أن تعفي المادي من انه يعمد إلى الميتافيزيقا حين يرد الفكر إلى المادة؟!..

إن التجربة لا تقول شيئاً في تأييد صنيعه، وإنما هي تكتفي بأن توضح الارتباط بين ما هو فسيولوجي وبين ما هو نفسي، وهذا الارتباط يمكن في الواقع أن يؤول ألف تأويل وتأويل...

ثم، إذا كان الحادث النفسي يحدده الحادث البيولوجي تحديداً صارماً، وإذا كان الحادث البيولوجي تحدده حالة العالم الفيزيائية ـ فإننا نفهم أن الشعور الإنساني يمكن أن يعبر عن الكون كما يعبر معلول عن علته، لا كما تعبر فكرة عن موضوعها...

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن لعقل أسير تتحكم به الأشياء الخارجية، وتسيره بسلاسل من الأسباب العمياء، أن يظل عقلاً؟!

[المهزلة..

وتكتمل مهزلة هذا الفكر الجدلي إذا ما قابلت أحد المؤمنين به وادعى لـك أنه يفكر بالنظرة الموضوعية، وهو منغمس في إيمانه إلى قمة رأسه (!)، وأراد أن يحاجك في أصل المعرفة الإنسانية وتطورها.. أو أراد أن يحاجك في الظاهرة الدينية... الخ.

فأول ما يورده لك مثل هذا الإنسان الذي هو في نظر العلماء [الذين يعتبرون أن التفكير ـ كالإحساس ـ محدود داخل نطاق المفاهيم والمقاييس الفكرية التي تكون الإطار الفكري] كالحصان الذي يجر العربات، وقد وضع على عينيه إطار، فهو لا يرى من الأشياء إلا تلك التي تقع في مجال «إطاره»...

أول ما يورده لك مثل هذا الإنسان (!) هو المثل الذي يقول «الحاجة أم الاختراع»، ويحاول بعد ذلك إقناعك بأن الاختراعات وتطورات الاختراعات قد أدت إلى تطور الحياة الإنسانية وترقيها في مراحل تاريخية حدودها ما أنزل الله بها من سلطان!!!.

كما أنه إن ناقشك في الظاهرة الدينية وتردد «المشكلة الغيبية» بانتظام على الضمير الإنساني في جميع مراحل تطوره، تجده يحاول أن يعتبر الدين مجرد عارض تاريخي للثقافة الإنسانية؟!...

هيا بنا، فلنهبط ولنقض على أباطيلهم..

وإلى لقاء نعرض فيه إلى أباطيلهم، ونجري مقارنة بين الفكر العلمي والفكر الإسلامي ـ كما نراه ـ ونتناول بعدها المذهب المادي في أصل الكون والحياة وكذلك المذهب الغيبي في أصل الكون والحياة، فنعرض **لظاهرة النبوة والظاهرة القرآنية والمعجزات وعالم الغيب**...

ـ وكل هذا، ومن خلاله، نكشف منطقة الخطأ في تفكير النيهوم.

شهادة وإنصاف..

ولكن، لابد لي أن أقول ـ وكما أوضحت في مقال (هكذا تكلم النيهوم) ـ إن الأخ الصادق يتجنب الكثير من أخطاء الماديين الجدليين وغيرهم، ولكنني استنسبت أن أبدأ مع المناقشة من أولها.. نثبت ما صح له من خلفية ونشير إلى ما نعتقده منطقة خطأ...

فإلى لقاء....

IX

هيا بنا، فلنهبط ولنقض على أباطيلهم ؟!

ـ التفكير العلمي والفكر الجدلي . .

ـ القرآن وعالم العلم . .

ـ المشكلة الغيبية وترددها على الضمير الإنساني . .

ـ المذهب المادي . .

ـ المذهب الغيبي . .

تذكرة وإيضاح

إن هذه المقالة حلقة من سلسلة مقالات للأستاذ إبراهيم بشير الغويل، قامت وتقوم الرائد بنشرها والهدف من ورائها مناقشة ما جاء في حديث السيد الصادق النيهوم الذي نشر يوم الجمعة 14/ 3/ 1969 والذي تضمن وجهات نظر غريبة تمثلت في منهج اتخذه السيد النيهوم لدراسة الرمز في القرآن وأورد فيه أمثلة أغرب.

هذا، وترى «الرائد» أن تذكّر دوماً بالفكرة من وراء هذه الحلقات، كما تذكّر بخط تسلسل هذه الحلقات ـ مع توضيح أن الأسلوب الموضوعي هو لحمتها وسداها.

وإليك ـ أيها القارىء العزيز ـ تذكرة وإيضاحاً بالفكرة من وراء كل حلقة نشرت، وهي ذاتها تعطيك خطة البحث والأسلوب . . .

1 ـ بداية مناقشة لوجهات النظر الغريبة التي ينادى بها النيهوم (وقد أوضح فيه الكاتب أنه يعتبر «الرمز» من الموضوعات التي تدخل ضمن المنهج الأدبي لدراسة النصوص، وتناول مقدمات عن المستويات التي تقتضيها الدراسة الأدبية لنصوص القرآن الكريم . . / مع تأكيد الكاتب على ضرورة إعمال هذا المنهج بأركانه وشروطه.

2 ـ ثقافة حدد ميادينها المفسرون والأصوليون (وقد اشترط فيها الكاتب الشروط التي تنبغي لمن يقوم بدراسة أدبية لنصوص القرآن الكريم كما حدد فيها ميادين

البحث وترامي أطرافها وتنوعها الخ . . . وانتهى للقول إن الشعور بالنقص أجمل من التزيد الزائف.

3 ـ **ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون** (وقد كانت مقدمة لتعرف أقوال المفسرين في ما ضربه السيد النيهوم من مثل بعيسى بن مريم). . .

4 ـ **مناقشات من حول الموضوع، ولكنها في صميمه** (وهي كما هو واضح منها، قد جاءت بأطراف من المناقشات التي دارت حول الموضوع ولكنها كانت جوهرية، وقد عرض الكاتب لمناقشة جرت بينه وبين السيد النيهوم، وقد أوضح السيد النيهوم للكاتب أنَّهُ تبنَّى دراسة الرمز في القرآن. . انطلاقاً من خلفية فلسفية، لا استناداً إلى دراسة أدبية. . .).

5 ـ **هكذا تكلم النيهوم**؟! (وفي هذه المقالة عرض الكاتب لخلفية النيهوم الفلسفية التي دفعته إلى دراسة الرمز في القرآن. . .).

6 ـ **النيهوم أخطأ. . وأخطأ. . وأخطأ..** (وكانت هذه بداية مناقشة للوجهة الجديدة التي أوضحها السيد النيهوم للكاتب، وقد أوضح الكاتب أن **السيد النيهوم أخطأ المنهج العلمي الموضوعي** بمحاولته دراسة القرآن الكريم وتلوينه بوجهة نظر تبناها السيد النيهوم مقدماً، **كما أوضح خطأه لعدم اتباعه المنهج الأدبي** لدراسة نصوص القرآن الكريم، **ثم أوضح خطأ السيد النيهوم لعدم اطلاعه على أقوال السابقين من المفسرين. . .**

7 ـ **قال المفسرون في قصة ميلاد عيسى بن مريم** (وهي عرض لبعض الأقوال التي أوردها بعض المفسرين والتي كان يمكن للسيد النيهوم أن يستعين بها إن كان هدفه هو نفي الخوارق وجعل حياة عيسى بن مريم مما يدخل في حدود الفهم العادي أو العلمي ـ ودون حاجة بالسيد النيهوم للقول بما لم يقل به أحد، ودون حاجة إلى توسيع الدراسة بالقول بالرمز. . .).

8 ـ **منطقة الخطأ في خلفية النيهوم الفلسفية** (وهي مناقشة لتوضيح الأخطاء التي التبست على الأخ النيهوم وغيره ممن أربكتهم الفوضى الفكرية التي يعيشها

العالم الإسلامي والعالم الإنساني عامة، وهي تتناول مناقشة المذهب المادي والمذهب الغيبي من البداية. . .).

عالم العلم والفكر الجدلي:

لقد انتهينا في مقالنا الأخير إلى إجراء مقارنة بين المادية الجدلية والفكر العلمي، وكيف أن قوَام الاغتناء في الفكر العلمي هو المشاهدة والملاحظة والتصنيف والتحليل وفرض الفروض وتحقيقها وهكذا دواليك، بعكس الفكر الجدلي الذي قِوام اغتنائه هو الانتقال من مجرد إلى واقع، ومن مفهوم إلى نقاش (أو جدل) وتكامله في مفاهيم كلية وهكذا. **كما أشرنا** إلى أن الفكر العلمي إحصائي يهتم بالعلاقات وفهم القوانين إحصائياً ومن الخارج!. . فلا يقول بجدلية في قلب الأشياء(!) أو حتمية تندفع من داخلها. **كذلك أوضحنا** أن عالم العلم الكمّي، والكمية نقيض الوحدة الجدلية، ولا يملك العلم أي رمز للتعبير عن الكيفية من حيث هي كيفية. **ثم أوضحنا** أنَّ عالم العلم تحليلي تصنيفي، وحتى في مجال نظرية دارون فإن التطور انتقائي تصنيفي لا ديالكيتكي تركيبي!. . . **وأخيراً** أشرنا إلى ما يقول به العلم من الثابتات العددية الخ. . .

القرآن وعالم العلم:

مما يلفت نظر الباحث والدارس للقرآن الكريم أن القرآن لا يكثر الجدل حول ذات الله مثلاً ولا يكثر الجدل حول جوهر الأشياء، بل يقصر الاهتمام ويوجه الأنظار إلى مشاهد الكون وآفاقه ومظاهره الظاهرات واستطراداتها، فهو يعدد المظاهر المختلفة الدالة على وجود الله دون تطلع إلى معرفة ذات الله جل شأنه أو محاولة لإدراك كنههِ!. . .

ومن المقرر علمياً أنه ليس مما ينفي وجود الأشياء العجز عن معرفة حقيقتها أو جوهرها، وإلا ـ وكما قال العلامة الفلكي المشهور (كامبل فلامريون) في كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) ـ «فإنا نرانا نفكر، ولكن ما هو الفكر؟ لا يستطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال. ونرانا نمشي، ولكن ما هو العمل العضلي، ؟ لا يعرف أحد

ذلك . . أرى أن إرادتي قوة غير مادية ، وأن جميع خصائص نفسي غير مادية أيضاً ، ومع ذلك فمتى أردت أن أرفع ذراعي ، أرى أن إرادتي تحرك مادتي ، فكيف يحدث ذلك؟ وما هو الوسيط الذي يتوسط للقوى العقلية في إنتاج نتيجة مادية؟

لا يوجد من يستطيع أن يجيبني على هذا أيضاً ، بل قل لي : كيف ينقل العصب البصري صور الأشياء إلى العقل؟

وقل لي : كيف يدرك العقل هذا؟ وأين مستقره؟ وما هي طبيعة العمل المخي؟

قولوا لي أيها السادة... «ولكن كفى كفى ! فإني أستطيع أن أسألكم عشر سنين ، ولا يستطيع أكبر رأس فيكم أن يجيب على أحقر أسئلتي» ! ! !

والقرآن يثبت في نفوسنا الشعور ، ويوجهنا إلى إدراك ، أن الظاهرات التي تحدث إنما تتم باقتران بعض العلاقات بعضها ببعض اقتراناً متكرراً إحصائياً ، ولكن السببية هي بتقدير الله صاحب الإرادة المطلقة الطليقة !

فالفكر الديني وان كان يسلم بالسنن والقوانين الكونية المطردة التي لا تتبدل ولا تتحول على الأقل بالنسبة لنا نحن المخلوقين وبالنسبة لواقع الكون . . **إلا أن الله** ـ مع أنه جعل هذه السنن والقوانين تطرد ولا تتبدل ولا تتحول ـ **غير مقيد بهذه السنن والقوانين** فلا سلطان لها على إرادته وقدرته .

حقيقة إن الفكر الديني القرآني يرجح أن الصورة الراهنة للكون هي الصورة المختارة الثابتة العاكسة لصفات الله وكماله واتجاه إرادته . . .

وحقيقة إنّ الفكر الديني يستنتج من ثبات سنن الكون وقوانينه ، ومن أقوال القرآن الكريم عن اطرادها وعدم تبدلها وتحولها ، وعن أنها ما وضعت إلا بالحق والقسط ، وعن «أن الكون في اتساعه ورحابته الهائلة ، من الأوج إلى الحضيض ، يسير بنظام واحد في الذرات الصغيرة والمجرات الكبيرة ، بمليارات نجومه وأفلاكه ، هو الجد الذي لا لهو فيه ، والحق وموازيه القسط . . .» .

ـ أقول : إن للفكر الديني أن يستنتج من ذلك كله أن الخالق قد اختار للكون أبدع سنن الحق والخير والجمال ، وأقامه على صورة الكمال الدائم الذي يرتضيه ، وجعله صورة عكست صفاته وأسماءه الحسنى التي صدر الكون عنها . . .

ومع ذلك، فإن هذا الفكر الذي يحيط هذه الإحاطة، متحرراً من إسارِ الحتمية، ولا يتصور الإله إلا حر الإرادة والقدرة. . .

وكما يقول «صاحب العقل المؤمن» فرق كبير بين هذا العقل وبين العقل الواقف عند حدود البناء المادي، القاصر عن تخطي تلك الحدود بالتفكير الحر الذي يتناول الكون قبل بدئه وبعد انتهائه ويصاحبه مرحلة مرحلة، ويأبى أن يتصوره أزلياً وان يتصوره أبدياً، بل يحكم بأن الأزلية والأبدية للخالق وحده (وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم).

وأنه ـ يا أخ صادق ـ لمقام سام غاية السمو أن يكرم القرآن العقل الإنساني هذا التكريم! فيجعله يرى الكون هذه الرؤية، ويَزْويه بين عينيه، ويضعه بين يديه، ويقيمه فيه مقام الشهادة العظمى مع شهادة الله الخالق والملأ الأعلى على الحقيقة الأساسية الكبرى التي قام بها بناء الوجود وصلاح العالم، وهي وحدانية الله وقيامه على الوجود بالرعاية والرحمة. . .

وهكذا ـ **يا أخ صادق ـ كان يمكنك أن تتحرر من إسارِ الحتمية وتنظر للمعجزة على اعتبار أنها تخطٍّ بالتفكير الحر من حدود البناء المادي إلى مقام الشهادة العظمى مع شهادة الله الخالق والملأ الأعلى. . .** وهكذا ـ **يا أخ صادق ـ كان يمكنك أن تنظر إلى ظاهرة النبوة باعتبارها مظهر قيام الله على الوجود بالرعاية والرحمة** (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين). . . .

والقرآن، وهو يوجه الأنظار إلى آفاق الكون ومشاهد الطبيعة، فإنه يعرض كوناً عاماً شاملاً. . كوناً تجري على مسرحه حوادث، ويجري فيه تبدل وتغيير بالحركة، وتنتقل حوادثه من طور إلى طور، ولكنها حوادث مرتبط بعضها ببعض، ما بين سابق ولاحق بانتظام واطراد. . .

ولكن القانون المنتظم وقد سنه الله إنما هو وحي جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من القوانين والسنن، وهي بمجموعها مخلوقة منفعلة متأثرة خاضعة موجهة تحتاج إلى من يوجدها ويقدرها ويوجهها. . .

والقرآن ينبهنا إلى ما في السنن الكونية من صفة (**الكميـة**) **وقابليـة العـدد والحساب**، كما يبدو في الآيات التالية:

«والأرض (**مددناها**) والقينا فيها رواسي وأنبتْنا فيها من كل شيء (**موزون**) وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا (**بقدر معلوم**)» (سورة الحجر، الآيات 19 ـ 20 ـ 21).

«وكل شيء (**أحصيناه**) في إمام مبين» (سورة يس، الآية 12).

«وكل شيء عنده (**بمقدار**)» (سورة الرعد، الآية 8).

كما نبّه **القرآن الكريم** تنبيهاً متكرراً واضحاً إلى ما في الطبيعة من اختلاف وما فيها من تشابه وعدم تشابه وما فيها من تنوع وأصناف. . .

قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ (سورة الأنعام، الآية 141).

قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ (سورة الأنعام، الآية 99).

وقال تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (سورة الأنعام، الآية 38).

وقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ (سورة النور، الآية 45).

وهكذا يعامل القرآن الكريم عالم العلم. . .

فالقرآن الكريم يدعو إلى النظر والمشاهدة والملاحظة بشمول يمتد عبر الآفاق الواسعة الممتدة المتنوعة الدائبة الحركة والمليئة بالحوادث والتبدلات المتكررة بصورة توحي باطراد السنن وانتظام القوانين ـ وهذا هو عالم الشهادة الذي يشهده الإنسان فيدركه بحواسه، وبعقله وتفكيره، ويستثمره لمنفعته، ويتمتع بما فيه من جمال. . .

والقرآن الكريم يدعو إلى النظر والتأمل والتفكر جاعلاً من هذا المنطلق طريقاً للوصول لله الخالق المقدر للسنن والقوانين . . .

إشارة إلى منطقة الخطأ الأولى..

وهنا لابد من وقفة لنضع إصبعنا على **منطقة الخطأ الأولى** في «**خلفية الأخ الصادق النيهوم الفلسفية**» . . . فالأخ النيهوم قد أخذته «الطبيعة الثابتة والفطرة المسنونة والسبيل المطروقة» فلم يستطع منها فكاكاً، ولقد وقف بعقله عند حدود البناء المادي ولم يتخط تلك الحدود بالتفكير الحر الذي لا يتصور الإله إلا حر الإرادة والقدرة . . .

ولكن القرآن في انتظارك ـ يا أخ صادق ـ يستقبلك بما يستقبل به العقل البشري من أنس وترحاب ويضع أمامك مفاتيح علوم الأرض والسماء، ويشجعك على بحث كل شيء، ورفع أستاره، ومعرفة أسراره، ويخولك امتلاكه وتعريفه وتسخيره، ويذهب عنك ـ وعن الإنسان عامة ـ الروع والخوف من القوى المادية الجبارة، ويفتح لك أبواب الطبيعة ويركبك فيها طبقاً عن طبق في أجواء الفضاء الكوني والأعماق النفسية!

وكما يقول «صاحب العقل المؤمن» فأية كرامة أعظم من هذه؟! وأية نفس تأباها وترفض اليد التي تمتد بها إلا أن تكون قد سفهت نفسها وجانبت الرشد، ورضيت الضياع والوقوف موقف العجز والهوان على ذاتها وعلى العالم؟!

والذين يقفون عند الحدود المادية للكون، ولا يرون بعقولهم من ورائه، هم الذين يأبون هذه الكرامة والرشد ويرفضون تبوُّؤَ هذا المقام المحمود، ويرضون لأنفسهم بالعجز وعدم التطلع إلى الكمال، ويحجرون على عقولهم أن تنتفع بما فيها من طاقات تؤهلها أن تكون من موازين الحكم والرأي في الكون ومن أدوات البحث عن النبأ العظيم والشأن الخطير الذي يعمره وينبت فيه! ويحملونها على أن تعيش حياتها آلة صماء أو قوة عمياء كتلك الآلات والقوى المادية التي تقف عند حدودها ولا تتطلع إلى ما وراءها.

وهم مهما كشفوا واستخدموا من أسرار التكوين والتخريب والقدرة على التسخير واختزال الأبعاد ومواجهة عوامل الفناء، ومهما صعدوا من أجواء الفضاء الكوني والكواكب، أو نزلوا إلى أعماق الأرض والمحيطات، فإنهم بموقفهم المتحجر الخائف الواقف عند حدود المادة، قد برهنوا على أنهم ليسوا من الكائنات العليا، بل من الأحياء الدنيا التي لا تعرف حق نفسها ولا حق الوجود! بل تعيش بعقلية القطيع في ذهول إلا عن الكلأ والسوم والرعي وعصا القهر التي تراها على رأسها... أما اليد التي أوجدتها وساقتها إلى ساحات رعيها وسعيها، وخولتها ما هي فيه من حياة ومتاع، وهي التي تحميها، وتدفع عنها وتحاول أن ترفعها إلى مستوى الرشد والحكم والاختيار والكرامة وحرية التطلع إلى النبأ العظيم الذي ينبيء به هذا الكون... فهي لا تراها ولا تحاول أن تراها...

ومن هنا كان عماها عن رؤية اتساع الكون و(اتساع قدرة مالكه)! واكتشاف أعماقه ومدى طاقات عقل الإنسان وقدرته على رؤية ما وراء ذلك البناء المادي العظيم.

ومن العجب أن ترضى هذه العقول الواقِفَة عند حدود المادة لنفسها وحياتها هذا الضيق والضنك بينما يناديها الكون بهوا تفه التي لا عدد لها، ويدعوها القرآن بأنسه وترحيبه أن تنطلق وراء أشواقها الفطرية إلى المجهول الذي وراء حدود البناء المادي، وأنْ تحاول التصرف إليه كشأنها ودأبها مع كل مجهول!

حتى لا نقع في وهم بعض فلاسفة اليونان؟!

أود أن أقول: **إن الله لم يضع قوانين وسنن الكون ليتقيد بها كالأغلال والأصفاد**، فهو حر الإرادة والقدرة، ويجب ألا نتوهم ـ كما توهم بعض فلاسفة اليونان ـ أنَّ الله لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة!

وينبغي أن نتذكر دائماً أن كل شيء في الطبيعة معجز ومحير، وأنَّ إضافة شيء إلى الطبيعة من أعمال الخلق والإيجاد في ظروف استثنائية تقضي (الضرورة) بإحداث حجة حسية واقعة فيها، تلك الإضافة لا تزيد عجيباً ولا تستحق دهشة أكثر من غيرها من الموجود قبلها.

وما هو القانون، وما هي الظاهرة سوى ما ذهب إليه (كولمب) من أن الظاهرة ضرورة!

فالمعجزة وقد قضت بها ضرورة فهي ظاهرة، وتكررها دليل وجودها!

ثم لا ننسى أن القانون المنتظم والسنة الثابتة إنما هو، وهي، جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من القوانين والسنن...

والأمور والأشياء من أولها إلى آخرها معجزات وآيات محيرات، ولو خلقناها بأيدينا لم يذهب ما بنا من حيرة ودهشة...

ويتعبير «صاحب العقل المؤمن» أقول هذا وأطيل، لا للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل محمد، وتصدهم عن الإيمان بالنبوة بمعناها عند جمهور الناس. إن أمرها أهون في التقدير مما يتصورون، وإنَّها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة، لان الله يفعل مثلها في كل دقيقة ملايين الملايين!!!!

← فدع عنك، يا أخ صادق، «الرمز» ودع عنك تأويل المعجزات في القرآن، فحديثه قاطع بوجودها، و«القرآن المعجز الدائم يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة، وعصا انقلبت حية، وطير خرج من طين، وعن كثير من الآيات بحديث صريح لا يقبل تأويلاً ولا تخريجاً غير ما يحتمله لفظه...».

بقيَ أن أقول لك..

بقيَ أن أقول لك - والحقَّ أقول لك - كما يبدو من تتبع آيات الكتاب الكريم: إنَّ هناك **نوعين من حقائق الوجود، ولكل منها طريق لكشف حقائقه، فهناك عالم الشهادة أو عالم العلم والمشاهدة والحس...** والذي تحدثنا عنْهُ - **والقرآن الكريم يطالب بالنظر في مشاهده** واستخدام **السمع والبصر والفؤاد وكل أولئك كان عنه مسؤولاً...**

وهناك عالم الغيب والطريق الموصلة إلى حقائقه هي النبوة أو الوحي الإلهي.

وإلى لقاء نناقش فيه **تردد الظاهرة الغيبية - وبانتظام - على الضمير الإنساني والتفسير المادي لها وكذلك التفسير الغيبي أو الديني...**

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

X

عيسى في القرآن والإسلام ...

الحمد لله حمداً ندخل به في تسبيح كوني يسبِّح بحمد الله كله، فكل ما في الكون يسبح بحمد الله وفقاً للقرآن. . وهو تسبيح يمكن أن يتفق مع تسبيح الإنسان فيكون الكون كله في عرس توحيدي. . .

وحمداً له رب العالمين. . حمداً نفلح به إن شاء الله في أن نزكي أنفسنا وننميها، ونوسع آفاقنا فتشرق حياتنا بتناغمها وانسجامها مع كل ما في الكون والحياة حتى لا نرى في كل تنوعات الكون والحياة إلا وحدة واحدة متناغمة. . وهكذا يتوافق الإنسان مع بيئته ومع الإنسانية كلها التي يراها - أسرة واحدة. . والناس في الدين إخوة. . والأنبياء إخوة. . .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وعلى أخويه موسى وعيسى وسائر الأنبياء والرسل - أفضل السلام.

وأما بعد، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن عباد الله كلهم إخوة. . وأحييكم بتحية كلها سلام ورحمة وبركة. . .

وأبدأ **حديثي بتوضيح منهجي وخطة بحثي** في هذه المحاضرة بعنوان **«عيسى في القرآن والإسلام»**. . .

ومنهجي وخطة بحثي تتمثل فيما يلي:

بند (1) محاولة **لإتاحة تفهم أفضل للقرآن والإسلام** لدى جمهور من إخوة مسيحيين. . قيل في رسالة الدعوة إنهم قد «لا يدركون المظاهر الإيجابية للعلاقات بين الإسلام والمسيحية».

وقد نهجت في هذا العرض **تأكيد كون القرآن إنما جاء مصدقاً لما قبله من الكتب. . . كما أكدت مفهوماً للإسلام يوضح أنه دعوة لانسجام كوني. . ومن باب أولى انسجام في الأسرة الإنسانية الكبيرة. . بدين واحد. . وأنبياء ورسل إخوة. . .**

وفي البند (2) وقفت عند دعوة القرآن والإسلام للإيمـان بجميع الأنبياء والرسل باعتبارها من القضايا الإيجابية التي يثيرها ذكر المسيح عيسى بن مريم كلمة الله وروح منه نبياً ورسولاً . . .

ومن المناسب أن أذكر هنا أن الأساس الذي جعله القرآن نفسه أساساً للمجموعات القصصية التي جمع بينها في السورة الواحدة إنما كان المقاصد والأغراض . . . والوحدة القصصية في القرآن الكريم لا تدور بحال من الأحوال حول شخصيات الأنبياء والرسل عليهم السلام، بل تتخذ من الإشارات التاريخية أداة لمقاصده وأغراضه . . ومن هنا ما يبدو في القرآن من تشتيت لأطراف القصة الواحدة وتكرار الخ . . . إن الشخص أو الحادث واحد ولكن موضع الاستشهاد مختلف والحوار غير الحوار . . ومن هنا قد يتم الجمع بين أشخاص وأحداث باعد بينهم الزمن أو باعدت بينهم المسافات . . .

لماذا؟ . . . لأن المقاصد والأغراض من تأكيد الظاهرة الدينية أو تثبيت مبدأ النبوة أو . . . إنما هو المقصود .

بند (3) حديث عن الظاهرة الدينية ومبدأ النبوة باعتباره أحد الجوانب الإيجابية التي يثيرها موضوع المسيح عيسى بن مريم كلمة الله وروح منه وإخوته من الأنبياء والمرسلين . . .

بند (4) حديث عن المعجزات . . . وهو الجانب الإيجابي الثاني أو الثالث الذي يثيره هذا الموضوع الذي نحن بصدده .

بند (5) . . . وقفة تقدم مثلاً كيف يسوق القرآن قصصه معتمداً على وحدة موضوعية للسورة . . . وذلك من خلال جمعه (مثلاً) بين قصتي «زكريا وابنه يحيى» و «مريم وابنها عيسى» عليهم جميعاً أفضل السلام . . .

بند (6) تجميع لمادة الدراسة . . وتأملات . .

بند (7) خاتمة . . . وعرفان وشكر . . .

ـ ومن أجل السلام، وفي ظلال التراحم والأخوّة والتعارف، نبدأ أبحاثنا على بركة الله . . .

1 - تفهّم أفضل للقرآن والإسلام

يهمني بادئ ذي بدء، وعند تناول هذا الموضوع في إطار التقييم (وصحتها التقويم) الإيجابي لمحمد وعيسى عليهما وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل السلام، أن أقول.. والحق أقول لكم: إن عيسى (عليه السلام) في القرآن والإسلام يمكن أن يكون الحديث عنه إيجابياً لو **حاولنا أن نتفهم القرآن والإسلام على الوجه الحقيقي ـ أولاً**: لأن هذا الفهم سيساعدنا في تقويم إيجابي للموقف من الإيمان بالأنبياء والرسل وظاهرة الدين وخاصة الدين السماوي ومبدأ النبوة ومعنى المعجزة... الخ.

القرآن

ويهمني هنا أن أؤكد أن **القرآن يقرر أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم...**

على أنه يظل لي أن ألفت الأنظار **أن القرآن لا يعرض نفس الرسالة التي كانت تعرضها التوراة والإنجيل فحسب، بل إن القرآن هو أحدث وآخر صورة (The last and the latest edition) لهذه الرسالة، فقد احتوى الأمور الأساسية** والتي كانت في الرسالات السابقة، **واحتوى جُمَاعاً لكل الأمور التفصيلية** التي اختصت بكل جانب منها رسالة.. وحذف ما لم تعد للناس حاجة إليه...

وخلاصة الأمر أن القرآن مرجع يؤكد الأمور الجوهرية والمشتركة والتي ترجع إلى أصول العقيدة ـ وهذا القدر المشترك هو الإسلام بالمعنى الذي بشر به كل الأنبياء والرسل ـ كما أنه يوجز ويؤكد المعالجات الجزئية التي توزعت بين التنزيلات السابقة والقدر الجوهري المشترك، الذي هو الاسلام، هو الذي احتاجته الإنسانية من أول يوم لها.. وستظل في حاجة إليه إلى آخر يوم لها...

← وأول قيمة إيجابية لهذا هي أن نؤكد للناس اليوم أن حياتهم تخضع لقوانين أساسية يتحقق خيرهم بمعرفتهم لهذه القوانين و «إسلام» أنفسهم وحياتهم لها، إذ إنهم إن لم يختاروا منهجهم وفقاً لهذه القوانين فإنهم سيصطدمون

بأسوأ العواقب، والإنسانية ليست كالأنهار يتعين مجراها بوهاد الأرض ونجادها من نفسه، ولا شأنها كشأن الأشجار تنمو وتكبر حسب السنن الطبيعية والنواميس الطبيعية، وكذلك ليس الإنسان بحيوان أعجم من الأنعام والدواب التي تسير بسائق جبلتها وتكتفي بالغريزة الكامنة فيها لهدايتها وإرشادها إلى منابع الرزق ومرافق الحياة، فالإنسان مع كونه خاضعاً لقوانين الطبيعة في قسم كبير من حياته لا يجد طريقاً معبداً ومنهاجاً معيناً في نواح أخرى من حياته المتشعبة حتى يمكنه أن يسير ويظل دائباً عليه كالأنعام من غير إرادة منه ولا قصد، وإنما يضطر البشر إلى أن يختار لنفسه منهاجاً من بين المناهج الممكنة، فإنه يحتاج إلى منهاج للتفكير يحل به معضلات الكون والحياة البشرية التي تعرضها الفطرة على قريحته المفكرة ولكن التزود بحل لها ليس ميسوراً يطمئن إليه الخاطر، وهو يحتاج إلى منهاج للعلم يرتب به المعلومات المبعثرة التي توصلها الفطرة إلى ذهنه بواسطة حواسه ولكن لا تأتي بها منتظمة في حال من الأحوال، وكذلك الإنسان في حاجة إلى منهاج لشؤونه الشخصية يقضي به بشيء كثيراً من مطالبه الذاتية التي تقتضيها الفطرة وتستدعيها ولكن لا تجهزه بشيء من المعدات والوسائل ولا تساعده بطريق لقضائها واضح محدود.

وزد على ذلك إنّه يحتاج في حياته العائلية وحفظ الأوامر بين ذوي القربى والشؤون الاقتصادية وشؤون الحكم والعلاقات الدولية ولكل نواحي الحياة الكثيرة الأخرى إلى منهاج يتبعه ويسير عليه...

ومما ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن شعب الحياة هذه التي لا مندوحة فيها للإنسان عن اختيار منهج للعمل ليست كل واحدة منها مستقلة بنفسها مستغنية بعضها عن بعض حتى يمكن الإنسان أن يختار لكل واحدة منها سبيلاً متفرقة مختلفاً بعضها عن بعض في وجهتها وطريق السير وخطته، فالحياة الإنسانية بأسرها مجموع يرتبط كل جزء منه بالآخر ارتباطاً وثيقاً، وتلتصق كل ناحية منه بالأخرى لصوقاً تاماً لا ينفصل وينفصم، يؤثر بعضه في بعض ويتأثر بعضه من بعض، يجري في عروقها جميعاً دم واحد، وتسري في أنفسها روح واحدة،

فيتألف من هذا وذاك ويتكون من تفاعلها فيما بينها الشيء الذي نسميه بالحياة البشرية.

وإذا كان القول بتجزئة الحياة إلى شعب كل منها على حدة باطلاً فإن القول بتجزئتها إلى دوائر إقليمية وأخرى نسليّة ينبغي أن لا يُفهم إلا في حدود التنوع الذي لا يخل بأساس الوحدة الإنسانية، بمعنى أن الجنس البشري يشتمل على شعوب وأمم وسلالات وعشائر متنوعة.. تطبّعت بطوابع معينة من خصائص الإنسانية ومقوماتها،، ولا يجوز القول بأن هذا التنوع يجعل أنه لا بد لكل سلالة ولكل أمة ولكل كتلة جغرافية من (دين).. أي نظام للحياة على حدة، فما التنوع الذي يوجد بين قوم وقوم وشعب وشعب إلا طريق للوحدة الإنسانية، وإلا لكان التنوع بين الذكر والأنثى وبين الفرد والآخر طريقاً أيضاً للمطالبة بأن يكون لكل دين! والذي ينبغي لنا أن ندركه **هو أن الإنسانية أسرة كبيرة خلقت من نفس واحدة وخلق منها زوجها** وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، **وهناك وحدة إنسانية تأسيساً على وحدة الخلق** وصلة الرحم التي تربط الناس جميعاً بعضهم ببعض مهما تناءت الديار واختلفت الألسنة والألوان تماماً كما هو التنوع في مكوّنات البيئة الطبيعية لا يمنع من سريان نفس القوانين على المكونات المتنوعة، ولعله ليس من قبيل الصدفة أن يذكر القرآن اختلاف الألسنة والألوان وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية ويعتبرها جميعاً أدلة على وحدانية الخالق، فوضعها بهذه الصورة دون أن يفرد لها وحدها دراسة خاصة يحق في الدلالة على أنها مجرد ظاهرة كغيرها من الظاهرات تجمعها كلها نظرة واحدة ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الروم الآية 17 ـ 24).

وكما يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل:

وحديث القرآن الكريم عن اختلاف الألسنة والألوان بين الناس كما كان حديثه عن اختلاف الألوان في آفاق البيئات الطبيعية فهو مظهر لقدرة الله له في النفوس قداسة واحترام وواجبنا حياله أن نعمل وفق أوامر الله ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (سورة فاطر 27 ـ 28).

على أن **الذي يستوقف النظر في الآيتين، الأولى** التي تخبرنا عن اختلاف الألوان بين الناس **والثانية** عن اختلاف الألوان في الغطاء الصخري والنباتي وعالمي الإنسان والحيوان، **أن الأولى** تنتهي بقول الله ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ **والثانية** بقوله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾. **هنا نلمس ربطاً بين هذه الظاهرات وضرورة البحث العلمي فيها، واطمئناناً من القرآن الكريم إلى أن ما يكشف عنه البحث العلمي الموضوعي في هذا المجال لن يكون متعارضاً مع الأساس الذي تقوم الحياة عليه** وهو أن يكون الناس جميعاً إخوة ـ فهم أبناء أب واحد وأن يعملوا في الحياة دون أن يكون لفروق اللون بشرية كانت أم طبيعية من الأثر ما يعوق هذا التعاون الإنساني من أجل حياة أفضل.

وانطلاقاً من هذا الأساس ـ وحدة الإنسان ـ يعالج القرآن الفروق المكانية بين الناس، إنهم يعيشون شعوباً وقبائل، ولكل شعب أو قبيلة موطن ـ وعليهم جميعاً أن يتعارفوا على أساس من تقوى الله، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة الحجرات الآية 13).

الإسلام ينظر إلى الإنسانية كأنها حديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها دون أن يكون للون فضل على الآخر.

والخلاصة

أنَّ ألوان الطيف سبعة وتخضع لنفس القانون فكذلك لا يجوز في المنطق السليم أن يتخذ من تنوع البشرية سبيلاً إلى إنكار وحدة الدين لتنوع السلالات أو تباين الأمكنة، وإذا كان ذلك حقاً وصدقاً فالمبادئ التي توضع لسيادة الإنسان بصفته النوعية ينبغي أن تكون عالمية شاملة لكافة البشر.

ومن سخافات القرن التاسع عشر العريقة في الضلال القول بتجزئة الحياة البشرية إلى عصور وأزمنة، وقد ألبسوها ثوباً مزخرفاً من العلم، وعرضوها على الأنظار والمسامع وكأنها حقائق ثابتة في موضع، والحال أن بينها وبين الحقيقة ما بين الأرض والسماء.

ولقد كان مرادهم أن نظام الحياة الذي يكون حقاً وينبوع سعادة وصلاح للبشر في عصر قد ينقلب باطلاً ومبعث خيبة وفشل في عصر آخر!!!

ولسنا ـ في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين ـ في حاجة إلى كبير عناء حتى نكشف زيف مثل هذه السخافات!.. ويكفي أن نؤكد أنه قد صار من الأكيد أن الإنسان هو الإنسان وأنه سيظل هو الإنسان للمليون السنة التالية!

ويقول شارلس جالتون داروين ـ حفيد داروين الكبير ـ في كتابه المليون السنة التالية:

(1) ما ملخصه: إن طريق التغيير المفتوحة أمام الإنسان إنما هي طريق وراثة العقائد.

(2) إن العقائد تدوم قرابة عشرة أجيال ثم تضعف وتخلفها عقائد أخرى مشتقة منها أو مناقضة لها في بعض الأحادين.

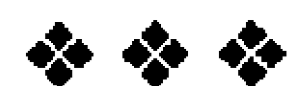
(لاحظ أن العلامة ابن خلدون هو صاحب نظرية الأجيال هذه والتي تعتبر نظرية الدورات الحضارية استمراراً لها، ونظرية الدورات الحضارية هي التي يأخذ بها مؤرخ العصر توينبي).

(3) إن الإنسان في دخيلته لا يلوح عليه أنه استراح لما جاءه من قبل الحضارات المتوالية، لأنه يكن في طواياه بقايا الأزمنة المتطاولة التي يكون فيها خارج الحضارة!!! أو في جاهلية!!! ويبدو أنه يستريح إلى معاودتها كلما وجد بين يديه منفساً للمعاودة!

(4) إن العقيدة مبدأ يؤمن به صاحبه ويستلهم منه الهداية في غاياته ومعاملاته...

← وهي أمر لا غنى عنه الآن وبعد آلاف السنين!

(5) إن الأمل كله مرهون بإمكان تقرير القوانين العلمية التي تسيطر على الحياة بما يقارب الدقة التي تقررت عليها قوانين العلوم الطبيعية!



وهكذا **كل الأمل مرهون بإمكان تقرير القوانين العلمية التي تسيطر على الحياة. وحيث إنَّ الإنسان بنسبيته الذاتية أو المكانية أو الزمانية لا يستطيع تقرير هذه القوانين.**

إذن، فإن الإنسانية اليوم ـ وكما كانت في القديم ـ في حاجة لهذا المنهاج الذي يقرر القوانين العلمية التي تسيطر على الحياة حتى (تدين) به و(تسلم) نفسها له!

ولكن، سيظل هناك من يتخذ بينه وبين الحق غطاء **فيكون كافراً!**

وسيبقى هناك من يقف عند مرحلة... **فيكون من أهل الكتاب!**

وسيكون هناك من يظهر الإسلام ولم يؤمن أو **ينافق!**

... والإسلام

فالإسلام في أصله اللغوي يفيد معنى «التساير في هدوء لا يهيج بعضها بعضه» فيقال عن الخيل: إنَّها تسالمت.. كما أنها تفيد معنى الانقياد والسير وفق سنن الطريق، **ومادة سلم** عامة فيها معنى **أن يكون الشيء خالصاً خالياً** من العوارض، وفيها معنى **الاستسلام للقانون والأمان وإيصال الشيء إلى مكانه**، فيقال أسلم بمعنى أخلص وخَلُوَ من العوارض، وانقاد وانتظم في أمن وتسبيح كوني يوصل إلى انسجام وتناغم في الكون كله ـ **والسلامة** تتصل بمعنى الانصياع

للقوانين والاستسلام لها، كما تتصل نفس المادة اللغوية **بالسلم الذي يوصل إلى الأمكنة العالية ويمكن من الترقي المنتظر.**

والإسلام اصطلاحاً هو انسجام الإنسان مع الوجود، ومعنى انسجام الإنسان مع الوجود أن الوجود بجماده ونباته وحيوانه خاضع.. مسخر لله لا يمكن أن يصدر عنه شيء إلا - بمراده تعالى، **ولكن** الإنسان هو الذي جاء منه الطائع والعاصي.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ . . . ﴾.

وكلها أجناس ساجدة.. خاضعة لله، ولكنه حين جاء عند الإنسان قال:

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾.

ومن المفروض أن ينسجم الإنسان اختياراً مع الوجود كله، **فالإسلام إذاً أعادةُ انسجام الإنسان.. فيكون مع الكون في نغم كوني كله تسبيح.**

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾.

.. ومن الممكن أن يتفق تسبيح الجبال مع تسبيح الإنسان في عرس توحيدي في الكون. «يا جبال أوبي معه»... أي مع داود والحقيقة أن **المشكلة الرئيسية التي يواجهها الإنسان** إنما هي في فقده حس «التوحد مع الطبيعة»، **فحينما يتجاوز الحيوان قانون الطبيعة (أو الخضوع لقانون الطبيعة)**، وحينما يتجاوز دوره السلبي **يولد الإنسان - وبميلاد الإنسان** وبتصميمه **على إدراك ذاته وتأكيده للوعي.. يفقد الانسجام والتوحد الذي يتصف به الوجود الكوني كله، ويظل يحن إلى هذا الانسجام والتوحد، وعليه** أن **يجد طريقةً لا بالرجوع إلى مستوى توحد الحيوان إنما بحمل أمانة الاختيار المهتدى إلى انسجام كوني اختياراً.**

وأعتقد أن بتهوفن هدف من سمفونيته التاسعة أن تسمو بالفكر إلى نوع من نفاذ البصيرة الصوفي، ولقد كتب هندميت مغناة سماها «هارمونية العالم» عن كبلر، وعند ذروة هذه المغناة كان يفترض أن توحي الموسيقى بدوران النجوم

والأجرام السماوية مع المغنين والراقصين، ويظل بوسْع المرء أن يتصور موسيقياً عبقرياً مؤهلاً للنجاح ينقل الجماهير إلى حالة تخيلية تعكس بطريقة ما كل انتظام الكون والوجود والحياة في نغم واحد.

والإسلام على هذا يعني

❖ **علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية يجب أن تكون علاقة انسجام.** قال الرسول عليه الصلاة والسلام تمسّحوا بالأرض فإنها بكم برة. ومن وصايا أبي بكر لا تقطعوا شجراً مثمراً ولا تخربوا عامراً ولا تحرقن نخلاً ولا تفرقنه.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار، وقال أيضاً بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال لقد بلغ هذا الكلب الذي بلغ به فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ورقى فسقى الكلب فشكر الله فغفر له، قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟!! قال: في كل كبد رطبة أجر.

وكذلك من أقواله (صلى الله عليه وسلم) ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة وقال عمر (لو أن عناقاً (عنزاً) ذهب بشاطئ العراق لأخذ به عمر يوم القيامة).

والخليفة عمر بن عبد العزيز «وقد بلغه أنّ بمصر إبلاً ثقالات يحمل على البعير منها ألف رطل فإذا به يكتب إلى واليه قائلاً: بلغني أن بمصر إبلاً ثقالات يحمل على البعير منها ألف رطل فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرف أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل».

❖ **وروح التوحّد مع كل الكون والحياة ينطبق من باب أولى مع الإنسانية باعتبارها أسرة واحدة** لا يعدو أن يكون تنوعها في أمكنة أو آماد إلا دليلاً على أن وحدتها تتم من خلال هذه التنوعات، فهي تبدأ من خالق ونفس واحدة.. ثم يكون التزاوج.. فالانتشار رجالاً كثيراً ونساء ليعودوا إلى وحدة تبدو من خلال كل التنوعات في الألوان والأجناس والألسن واللغات ـ وها هو

القرآن يربط ظاهرات التنوع بين بني الإنسان وظاهرات التنوع في آفاق البيئة الطبيعية والكون.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر من 27 ـ 28).

والقرآن الكريم يتحدث دائماً عما يبدو لنا من تناقض وتضاد باعتباره آيات ـ وحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «اللهم إنّي أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن العباد كلهم إخوة».

❖ وبهذه الروح من الانسجام والتوحيد والوحدة نظر القرآن والإسلام إلى أن الدين واحد وإنْ تنوعت الرسالات.

فالمعرفة اللازمة لبني الإنسان دوماً، والتي قد ضمنها الدين معه من أول يوم، إنما هي تلك المعرفة التي تتحقق بها حالة الانسجام الكامل للوجود كله، وهي معرفة مكتملة من معرفة عرفانية هي البداية ومعرفة **علمية بشرية تقفل النقطة في دائرة** الجولة العقائدية، **فاكتمال توحيد العقيدة والشريعة كان هو الدين الخاتم الذي سيكتمل مع توحيد الفكر البشري بوحدة مصير الإنسانية.** . تماماً كما كان القرآن قد انزل جملة يوم أن طبع على قلب خاتم الأنبياء والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليهدي به ذلك القلب المطهر الغسول، ثم أنزل تفصيلاً... منجماً بحسب الآيات التي تعالج الوقائع ليكون العالم كله مختبراً تتكرر الأحداث بحسب القوانين ليزداد اليقين بها ويتضح السبيل أمام العقل ويهذب السلوك.

بمعنى أن الدين إنما هو رؤية لتاريخ الإنسان عمادها الوحدة والتوحيد فيها تنوع الحياة الإنسانية تطبيقاً لقانون كوني ينتظم كل تنوع، فهو في وحدة أو وحدة من خلال التنوع.

❖ ولا أحسب نظرة كهذه تفرق بين الأنبياء والرسل، فالأنبياء والرسل كلهم إخوة وتؤمن بهم جميعاً لا تفرق بين أحد منهم ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن

رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة، 285).

والقرآن الكريم يوضح أنه لم يذكر كل الأنبياء والرسل، ففي غافر الآية 78 يقول عز وجل ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾، مما يجعل المؤمن يقدر كل مجاهد في سبيل الإنسانية على مدى تاريخها القديم باعتبار أنه قد يكون ممن كان نبياً ولكنه لم ترد لنا قصته.

وعلى كل فنحن مأمورون ألا نفرق بينهم.

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة 136).

2 - الموقف من الأنبياء والرسل

← ويثير موضوع عيسى وغيره من الأنبياء والرسل ودعوتنا للإيمان بهم سؤالاً عما لماذا دعينا إلى ذلك؟

والإجابة هي التمهيد المناسب لعطاء إيجابي من تناول <u>**موضوع الظاهرة الدينية**</u> والحديث <u>**عن مبدأ النبوة**</u> وخصائصها... و«<u>**المعجزات**</u>».

وبادئ ذي بدء علينا أن نذكر أن الإنسان الخالي الذهن من أحداث النبوة والرسالة وسننها إذا دعي إلى الإيمان بالرسول الحاضر والكتاب الحاضر قد يجحد مبدأ النبوة والرسالة ـ وهنا مثل في تاريخ نبينا ورسولنا صلى الله عليه وسلم هو ما حصل لأبي طالب حينما بشره الراهب بنبوة ابن أخيه فسأل: وما النبي؟!

ولذلك فإن حديث القرآن ودعوته لنا أن نؤمن بكل الأنبياء والرسل إنما هو لفت من الحكيم العليم إلى <u>**أن النبوة والرسالة سنة جارية وخطة مقررة مرسومة «ما كنت بدعاً من الرسل»**</u>.

وطالما أنكر كل منّا بعض الاكتشافات أو الاختراعات حتى أقيم أمامه الدليل والبرهان، ومع ذلك يظل ينكر أي اكتشاف أو اختراع للمرة الثانية أو

الثالثة ـ فإذا تكرر الإنكار وإقامة الدليل والبرهان والحجة لعدة مرات . . . انتهوا إلى التسليم .

← وهكذا يكون وجود السابقة أو السوابق أحد أدلة الظاهرة؟!

ويقدم موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل مثل لتأكيد تكامل رسالة الأنبياء والرسل وأخوّتِهم . . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمّله إلا موضع لبنة في زاوية منه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون» ويقولون «هلا وضعت هذه اللبنة؟ . . . فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين . . » البخاري ومسلم واحمد .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن يوسف عليه السلام :

«أتدرون من الكريم ابن الكريم ابن الكريم؟ ابن الكريم إنه يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم» البخاري وأحمد في مسنده .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رحم الله موسى أوذي بأكثر من هذا فصبر ـ البخاري ومسلم .

وكان يقول عن عيسى عليه السلام «الأنبياء إخوة أبناء علات ، أمهاتهم شتى . . ودينهم واحد» ← وفي رحلته إلى الطائف ، يدعو ثقيفاً ، وقد ردته رداً غير جميل وأغرت به السفهاء والغلمان يرمون قدميه بالحجارة ويصرخون فيه حتى لجأ إلى بستان يعمل فيه عامل نصراني . . وقد خلا للرسول صلى الله عليه وسلم فأحضر له بعض الماء والفاكهة فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا العامل قائلاً : من أهل أي البلاد أنت يا عداس ، وما دينك؟ قال عداس : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوه ـ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ، فتعجب العامل وسأل : وما يدريك ما يونس بن متى؟ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي» .

ـ في رحلة الإسراء والمعراج يحدثنا عن لقائه بالرسل ويعطينا وصفاً لأهم ملامحهم ، فمنهم من غلبت عليهم الأدمة ، ومنهم من كان أبيض ناصع البياض . . . الخ .

← فهذه باقة رغم تنوعها تكون وحدة واحدة. . . ألوان متعددة وهدف واحد.

3 - الظاهرة الدينية - في دين السماء

هل الأنبياء والرسل أعضاء في جمعية سرية؟!

على أن قصة بعض الأنبياء والرسل وتقارب أنْسابهم، كما هي حالة قصة مريم وعيسى مثلاً، قد أدت بالبعض إلى نظرية غريبة ـ ضمن النظريات الغريبة الحديثة. . ؟! ـ مفادها «أن الفكرة الدينية قد انتقلت من جيل إلى جيلٍ بواسطة انكشاف باطني لنوع من السرية تظل ذكراه في أعماق التاريخ»؟!

وهو كما وصفه ابن نبي «الفرض الخاطئ المضحك» الفرض الذي يزعم حدوث انكشاف دوري للسر الديني بواسطة جمعية سرية غامضة يرأسها بعض «اللامات» في أحد جبال التبت البعيدة؟!!!

وهناك خلط غريب بين **الجوانب المتنوعة والمتعددة التي ظهرت بها الظاهرة الدينية** في مختلف البيئات والأزمنة.

← والظاهرة الدينية كما لا يخفى إحدى سنن هذا الكون التي جاءت مع وجود الإنسان وفكره وحضارته تحكمه كما حكمت سنن الله المادة أو كما حكمت الغريزة الحيوان «**والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني قانوناً خاصاً بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة** ـ من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية ـ حول مركز واحد. . . يخطف، سناه الأبصار، وهو حافل بالأسرار. . . إلى الأبد. . . ».

على أن الظاهرة الدينية في ديانات التوحيد تقوم كظاهرة يمكن فحصها والتعرف على قانونها. . .

«والواقع أن تتابع ديانات التوحيد دليل يمكن فحصه دائماً من الناحية الاعتقادية فحصاً يقوم على أساس النقد، ويتمثل هذا التتابع في ظهور النبوة وجميع المظاهر الأدبية والروحية التي تصحبها.

ومنذ «إبراهيم» عليه السلام تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم. . جاؤوا يخاطبون الناس باسم «حقيقة مطلقة» يقولون: إنَّهم يعرفونها معرفة شخصية وخاصة. . . بوسيلة (خفيَّة) هي الوحي.

ويقول هؤلاء الرجال إنهم مرسلون من (الله) ليبلغوا كلمته إلى البشر حيث لا يستطيع هؤلاء أن يسمعوها مباشرة.

وخصوصية هذا الوحي ومضمونه. . هما الآيتان المميزتان المثبتتان لرسالة النبي. هذا إلى أنها هي السمة المميزة للنبوة، وهي الحقيقة الجوهرية في مذهب التوحيد وبرهانه الواقعي.

هذا، على أنه لا بد لنا أن نذكر هنا ثانية أن بعث نبي ما ليس حدثاً فرداً فريداً. . . نادراً غريباً شاذاً. . . ← بل هو ظاهرة تتكرر بانتظام. . .

كما نذكر أن تكرارها على الأقل استمر منذ إبراهيم إلى محمد صلى الله عليه وسلم وسبق أن قررنا أن تكرر ظاهرة واستمرارها بنفس الكيفية ولهذا العدد من المرات وعلى امتداد هذه المدة من الزمن. . . يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها. .

← وكل ما يبقى علينا أن نستخلص القانون العام الذي يحكم الظاهرة.

النبوة... وخصائصها:

ونعتقد أن الاختيار الذي وفق له مالك بن نبي لدراسة حالة «النبوة» من خلال دراسة الظاهرة كما أوردها «أرمياء» معطياً لها أوصافها التفصيلية. . .

ولاشك أن الضمانات التاريخية التي تخول لكتاب **أرمياء وتاريخه الشخصي وثاقة وقيمة الحقيقة الموضوعية** تجعله مرشحاً لدراستنا هذه. . حتى لو تصورنا أننا نناقش أمثال البروفسور مونتيه (Montet) الذي توصل في **دراسته للوثائق الدينية إلى تجريد الكتاب المقدس من كل صفات الصحة التاريخية ـ فيما عدا كتاب أرمياء؟!**

أرمياء

إن أرمياء يورد وصفاً تفصيلياً لسلوكه الخاص حيال ظاهرة يشعر أنها موضوعية ـ رغم أنها تنكشف لنا من خلال الشهادة التاريخية لصاحب التجربة. . أو

من كان حوله أحياناً؟! ـ كالمغناطيسية التي تنكشف لنا بواسطة الإبرة الممغنطة التي تجسم لنا كماً وكيفاً الحقائق النوعية.

فها نحن **تتجمع لدينا إمكانية بحث لظاهرة تمس ذاتاً** لا إبرة أو قطعة حديد، **فيمكن لهذه الذات أن تحدثنا عن حالتها الداخلية** وتبرهن عليها **أولاً** بتحققها هي واقتناعها **وثانياً** بما يبدو عليه من أثر بعد خضوعه لقانون جديد، فإذا حدث وأن جاءت نبوة فإننا نشهد إرادة ذائبة بالتملص منها.. بل مقاومة، **ثم نشهد تحققاً واقتناعاً - ثم تستولي على الذات رسالة يبشر بها صاحبها.. مؤمناً.. متحمساً**... الخ...

وهنا أرمياء يقول «لقد صرت موضع سخرية طيلة النهار، فالجميع يهزؤون بي، لأنني كلما تكلمت وجدتني مضطراً لأن أصرخ، وأعلن الجبروت والخراب، لقد صارت كلمة الله بالنسبة لي مصدر عار واستهزاء مستمر. فإذا قلت: لم أعد أذكره، أو أتكلّم باسمه، وجدت في قلبي كالنار المضطرمة المستكنة في عظامي، فأحاول أن أطفئها ولكني لا أستطيع».

← فنحن، **إذن، إزاء ظاهرة خارجة عن إرادة صاحبها**.. وإزاء تعارض بين اختيار هذا الرجل والحتمية التي تطوق إرادته وتتسلط على ذاته؟!

فهناك **أولاً**: إدراك من أرمياء أنه محل سخرية واستهزاء لأنه كلما تكلم وجد نفسه **مضطراً** لأن يصرخ و...

ثانياً: وهو لشعوره أن (كلمة الله) التي تسبب الاستهزاء به فإنه يريد (إرادته الذاتية) أن يتخلص من دعوته..

ثالثاً: عامل خارج عن إرادته حاكم فيها.. يطوق إرادته، ويطبع حالته النفسية كلها ← وهو عامل له طابع قهري بالنسبة لذات أرمياء.

وهذا العامل هو العنصر الجوهري، إذ هو الذي يحدد سلوك النبي، بل.. ويحدد أحكامه على أحداث عصره ومعاصريه بحيث يبدو وكأنه يتجاوز حدود «النسبية» ليلاقي المطلق؟!.. ولذلك فإن الأنبياء إن أخذنا بالرأي الذي يعتبرهم

مصادر لنبوءاتهم فإننا سنجد أنفسنا أمام ميل أن نحكم بعقولنا لصالح معاصريهم، إذ إنَّ الأنبياء يتجاوزون كل منطق للأحداث بنبوءاتهم، بينما يكون معاصروهم أكثر اتفاقاً مع العقل. . حيث يجعلون لنظراتهم أساساً مستمداً من أحداث التاريخ - ولكن، ويا للعجب فإن ما يبدو متجاوزاً للمنطق وغير متسق مع التفكير أو متفق مع العقل هو الذي حدث؟!

تماماً. . كما حدث لأرمياء وهو يحذر الأمة من نير أكثر قساوة - رغم أن حالة الإسرائيليين أثناء أسرهم ببابل، وارتقاء حاميهم (أميل مردوح) (Emile Mardouh) على العرش غير متوقع، وانتهاج ملك بابل «سياسة يهودية جديدة». . بإطلاق سراح (جيكونياس Jeconias) ملك (جودا Juda) واتخاذه جليساً مبجلاً. . .

← أقول رغم أن حالة الإسرائيليين كانت تجعل من المطابق للعقل توقع كل خير. . فإن أرمياء ذهب إلى نقيض الأصل بمواعظه التشاؤمية (مما حقر من شأنه في نظر قومه). ولقد صدق التاريخ بطريقة عجيبة تشاؤم أرمياء الرهيب؟!

خصائص النبوة

فخصائص النبوة كما تبدو من دراسة حالة أرمياء هي:

أولاً: صفة القهر النفسي الذي يقصي جميع العوامل الأخرى للذات. . بحيث تلتزم النفس في النهاية بسلوك معين ودائم (مهما قاوم في البداية).

ثانياً: حكم فذ على أحداث المستقبل. . لا يجد مبرراته في، ولا يمكن نسبته إلى، التأثر بأحداث العصر، وإنما يتسم بصفة القهر من قوى مطلقة تجاوز بصاحبها كل «نسبية». . ؟!

← فإذا أضفنا هذا إلى أن المظاهر هي مظاهر السلوك النبوي على مدى تردد ظاهرة النبوة. . .

فإننا لم يعد أمامنا سوى أن نضع الظاهرة خارج الذات. . ويدعم هذا شهادة الأنبياء أنفسهم. . .

ومثل آخـــر

ونجد مثلاً لهذا القانون في حياة محمد صلى الله عليه وسلم، ، فهو عند بدء البعثة نسجل عنه الحوار التالي:

- اقرأْ.

- ما أنا بقارئ.

(قالها، وهو يحاول الابتعاد والهرب من ذلك الذي يأخذه فيغطّه حتى يبلغ منه الجهد ثم يرسله قائلاً:

- اقرأْ.

- ما أنا بقارئ.

(للمرة الثانية)

← فيكرر مرة ثالثة

اقرأْ... ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (سورة العلق، الآيات 1-4).

2- ثم نسجل عليه فترة انقطع فيها الوحي.. حتى قال الذين لم يؤمنوا أصلاً بأن له رباً قد بعثه «إن ربه قد قلاه»؟!

← ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان في حيرة وتساؤل: هل خدع في جوارحه أم القوة التي خاطبته قد تخلت عنه؟.. **وفي كل هذا ما يؤكد استقلال الظاهرة عن ذات النبي.**

3- بل إن موقفه وقد عادت السماء تخاطبه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾.. (سورة المدثر، الآيات 1-3). فيقول لزوجه خديجة - وقد وجدته جالساً.. غارقاً في تأملاته - «انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس، وأن أدعوهم إلى الله والى عبادته - **فمن ذا أدعو.. ومن ذا يستجيب**».

- **أقول إن هذا الموقف نفسه ليدل على استقلال الظاهرة والقهر النفسي الذي أقصى كل بقايا التردد وألزم النبي بالسلوك** الذي تأكد بعد ذلك في قيامه

وسلوكه وفقاً لهذا التكليف، ولم يرغمه شيء عن التخلي... لا المصالح المضيعة لأسرته، ولا توسلات عمه الوقور أبي طالب.. عندما يضغط عليه أشراف مكة كيما يضع حداً (لفضيحة؟!) ابن اخيه، ولا اقتراحهم أن يتولى أسمى منصب في إدارة المدينة... الخ.

«والله، يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»...

4- السنن الكونية.. والمعجزات؟

ومن التقويم الإيجابي لموضوع عيسى (عليه السلام) في القرآن والإسلام **أن نقف عند موضوع السنن الكونية وعدم تعارضها مع المعجزات**، وهو موضوع تثيره قصة عيسى وأمه مريم والقصة التوأم (قصة زكريا)، وقد آخى القرآن بين القصتين في غير موضع، بتوضيح أن أمر المعجزات «وعلى الله هين» قال كذلك «قال ربك هو على هين» كما تكشف عن أن الله يفعل ما يشاء..... وأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول كن فيكون وكان الأمر أمراً مقضياً...

فالقرآن يثبت في نفوسنا الشعور، ويوجهنا إلى إدراك أن **الظاهرات التي تحدث إنما تتم باقتران بعض العلاقات بعضها ببعض اقتراناً متكرراً إحصائياً، ولكن السببية هي بتقدير الله صاحب الإرادة المطلقة الطليقة...**

فالفكر الديني وإن كان يسلم بالسنن والقوانين الكونية المطردة التي لا تتبدل ولا تتحول (على الأقل بالنسبة لنا نحن المخلوقين وبالنسبة لواقع الكون) **إلا أن الله الذي جعل هذه السنن والقوانين تطرّد ولا تتبدل ولا تتحول غير مقيد بهذه السنن والقوانين.. فلا سلطان لها على إرادته وقدرته...**

حقيقة أن الفكر الديني القرآني يرجح أن الصورة الراهنة للكون هي الصورة المختارة الثابتة العاكسة لصفات الله وكماله واتجاه إرادته وحقيقة أن الفكر الديني يستنتج من ثبات سنن الكون وقوانينه، ومن أقوال القرآن عن اطرادها وعدم تبدلها وتحولها وعن أنها إنما وضعت بالحق والقصد، وعن أن الكون في

اتساعه ورحابته الهائلة «من الأوج إلى الحضيض» يسير بنظام واحد في الدورات الصغيرة والمجرات الكبيرة بطيارات نجومها وأفلاكها إنما هو الجد الذي لا هزل فيه والحق وموازين القسط.

أقول: **إن للفكر الديني أن يستنتج من ذلك أن الخالق قد اختار للكون أبدع سنن الحق والخير والجمال. وأقامَهُ على صورة الكمال الدائم** الذي يرتضيه وجعله صورة عكست صفاته وأسماءَه الحسنى التي صور الكون عنها ومع ذلك. . . . **فإن هذا الفكر الذي يحيط هذه الإحاطة متحرر من آثار حتمية، ولا يتصور الإله إلا حر الإرادة والقدرة**، وكما يقول صاحب العقل المؤمن «فرق كبير بين أهل هذا العقل وبين العقل الواقف عند حدود البناء المادي، القاصر عن تخطي تلك الحدود بالتفكير الحر الذي يتناول الكون قبل بدئه وبعد انتهائه ويصاحبه مرحلة مرحلة، ويأبى أن يتصوره أزلية وأنْ يتصوره أبدية بل يحكم بأن الأزلية والأبدية للخالق وحده هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم».

وإنَّه لمقام سام غاية السمو أن يكرم القرآن العقل الإنساني هذا التكريم فيجعله يرى الكون هذه الرؤية، ويزويه بين عينيه، ويضعه بين يديه، ويقيمه فيه مقام الشهادة العظمى مع شهادة الله الخالق والملأ الأعلى على الحقيقة الأساسية الكبرى التي قام بها بناء الوجود وصلاح العالم، وهي وحدانية الله وقيامه على الوجود بالرعاية والرحمة.

وهكذا يمكننا في خلال هذه النظرة أن نتحرَّرَ من آثار الحتمية **وننظر المعجزة على اعتبار أنها تخط بالتفكير الحر من حدود البناء المادي إلى مقام الشهادة العظمى** مع شهادة الله والملأ الأعلى، فلا تعود تأخذ الطبيعة الثابتة والفترة المسنونة والسبل المطروقة التي لا يستطيع منها فكاكا فينطلق ممتلكاً مفاتيح الكون متشجعاً على بحث كل شيء ورفع أسفاره ومعرفة أسراره فيسخره ويذهب عنه الروع والخوف من القوى المادية الجبارة راكباً فيها طبقة عن طبقة في أجواء الفضاء الكوني والأعماق النفسية.

يجب أن نذكر دائماً أن كل شيء في الطبيعة معجز، **وأَنَّ إضافة شيء إلى** الطبيعة من أعمال الخلق والإيجاد في ظروف استثنائية تقضي (الضرورة) بإحداث حجة حسية دامغة فيها - **هذه الإضافة لا تزيد عجيباً. . . . .**

ما هو القانون؟ وما هي الظاهرة؟ سوى ما ذهب إليه (كولمب) من أن الظاهرة - ضرورة.

فالمعجزة، وقد قضت بها ضرورة، فهي ظاهرة لها قانون، وتكررها دليل وجودها.

وكما يقول صاحب العقل المؤمن «أقول هذا وأطيل لأبين للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل محمد، وتصدهم عن الإيمان بالنبوة بمعناها عند جمهور أناس، إن أمرها أهون في التقدير مما يتصورون، وإنَّها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة، لأن الله يفعل مثلها في كل دقيقة ملايين الملايين!!!

والمعجزة هي :

1- بالنسبة إلى شخص الرسول: الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها.

2- وهي بالنسبة إلى الدين: وسيلة من وسائل تبليغه.

← **وعليه**

فالمعجزة **أولاً** حجة هي في مستوى إدراك الجميع. . . . . . .

إلا أنها **ثانياً** فوق طاقة الجميع ويمكن أن نضيف إليها **ثالثاً** إنَّها تكون بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إلى قوم معينين أو لأقوام متعددين. . . . وفي زمن قصير أو لآماد متطاولة.

5- ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون!

بهذه النظرة الإيجابية للمعجزة يمكننا أن نقف قليلاً عند قصة عيسى عليه السلام كما أوردتها سورة مريم مقرونة كقصة توأم مع قصة زكريا وولده يحيى، وقد آخى القرآن بين القصتين في غير موضع واحد. . فمثلا قد آخى بينهما في سورتي آل عمران ومريم. . . ← على أن تتبُّعاً لذكر عيسى عليه السلام وما يتصل به باعتباره

«مسيحاً» أو «ابن مريم» أو «كلمة منه» أو «روح» الخ . . . **يجب أن يتبع هذا العرض السريع لقصة عيسى وتوأمتها قصة زكريا وابنه يحيى . . . .**

سورة مريم والبدء بحروف هجائية؟!

سورة مريم من السور المكية التي تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به وتقرر عقيدة البعث والجزاء .

وهي إحدى تسع وعشرين سورة بدأت بحروف هجائية . وقد لوحظ أن هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف . «ولعلها لهذا بدأت كلها ببدء غير مألوف . . » وهو تلك الحروف الهجائية التي تنطق بأسمائها وبمسمياتها . وذلك ليكون البدء الغريب قرعاً للأسماع وإعدادها لتلقي غرائب لا تعرف السنن المألوفة !

زكريا وولده يحيى بين سورتي آل عمران ومريم:

وقد ذكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ .

وذكرت في سورة مريم ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ

ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

وهكذا نرى الحديث في سورة آل عمران عن البشارة بيحيى ، وطلب زكريا أن يجعل الله له آية ، وتكليفه بذكر ربه كثيراً وتسبيحه بالعشي والإبكار . . . .

بينما نجد في سورة مريم خروج زكريا على قومه من المحراب وإيحائه إليهم أن يسبحوا ربهم بكرة وعشياً . كما نجد الخطاب موجهاً إلى يحيى ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ . . .

القصة التوأم:

وتذكر السورة ﴿ كٓهيعٓصٓ﴾ قصة مريم وقد آخى القرآن بين القصتين في غير موضع ومن الملفت للنظر أن سورة آل عمران تحدثت عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى ، بينما تحدثت سورتنا هذه مريم ﴿ كٓهيعٓصٓ﴾ عن حملها بعيسى وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشراً سوياً ، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ .

«ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها ، واشتد حزنها لا لشك في نفسها وإنما لتقدير ظنون الناس فيها ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

ومن المهم أن نتابع الآية الكريمة التي توضح حواراً شبيهاً بحوار زكريا وتحمل القول الإلهي ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ كما تكشف عن أنَّ الله يفعل ما يشاء وأنَّه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ .

ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أننا كما نجد زكريا يخرج من المحراب ونجد ابنه يحيى مخاطباً في سورة مريم فإننا نجد أيضاً مريم أتت به قومها تحمله ونجد عيسى يكلم الناس في المهد صبياً . . .

ولا تغيب عن فطنة القارئ الكريم المقارنة بين **قوله تعالى عن يحيى** ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ **وبين قوله تعالى عن عيسى** ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾!!!

كما لا تغيب عن القارئ نسب عيسى إلى أمه ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾.

وما أَجْملَ ما أَجْملَ به عيسى وهو في المهد رسالة السماء إلى الأرض ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾.

وإنها لرسالته قد استوفت تجربتها بل تجربتيها، لأنها كانت في الواقع تجربتين ودعوتين، قامَ بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة وهما يحيى وعيسى بن مريم.

وهي على كل حال، دعوة الغيرة العارمة الأبية، ودعوة الغيرة السمحة الرضية. **ولكنه قول الحق صارماً أو سمحاً لا بد له أن يصطدم بعماية الشهوات وعناد الغرائز** «وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال: إن يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان، ثم جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فقالوا إنه إنسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة».

هي الأهواء التي أخذت بالناس في شأنه هو إلى جهات متباينة، فمنهم من قال به على مريم بهتاناً عظيماً، ومنهم من قال به على الله شيئاً إِمْراً.

← هكذا في كلمات قليلة عرف به وبرسالته وبمواقف الناس منه، ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾.

سبحانك ربي إذا قضيت أمراً فإنما تقول له كن فيكون.....

6- تجميع لمادة الدراسة... وتأملات

ولم يعد لي ما أضيفه لهذه الدراسة سوى تجميع لمادة الدراسة في القرآن.. بتتبع لألفاظ عيسى والمسيح ومريم وكلمة وروح ونفخ.... كل هذا ليكون موضع تأمل لمن يريد أن يتأمل في افتراق النظر إلى عيسى عليه السلام من وجهة نظر القرآن - عنه عن غيره....

على أنني سأعود لإبداء ملاحظتين :

الأولى : حول مفهوم ابن الله؟!

الثانية : حول الصلب؟

1- وقد ورد ذكر عيسى في القرآن الكريم في المواضع التالية :

(عيسى 25) ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة ، 87).

﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ (البقرة ، 136).

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة ، 253).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران ، 45).

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران ، 52).

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ (آل عمران ، 55).

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ (آل عمران ، 59).

﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ (آل عمران ، 84).

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (النساء ، 157)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾ (النساء ، 163).

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ (النساء ، 171).

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (المائدة ، 46).

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ . . . ﴾ (المائدة ، 78).

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ (المائدة ، 110).

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ . . . ﴾ (المائدة ، 112).

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (المائدة ، 114).

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . . ﴾ (المائدة ، 116).

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الأنعام ، 85).

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (مريم ، 34).

﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ (الأحزاب ، 7).

﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ . . . ﴾ (الشورى ، 13).

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الزخرف ، 63).

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ (الحديد ، 27).

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ (الصف ، 6).

﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الصف ، 14).

2- كما ورد ذكر المسيح في القرآن الكريم في المواضع التالية :

(المسيح 11) : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران ، 45).

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (النساء ، 157)

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ (النساء ، 171).

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ (النساء ، 172).

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة ، 17).

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة ، 17).

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة ، 72)

﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة ، 72).

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ (المائدة ، 75).

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة ، 30).

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ (التوبة ، 31).

3- وورد ذكر أمه مريم في المواضع التالية :

(مريم (34)) : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة ، 87) .

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة ، 253) .

﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران ، 36) .

﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران ، 37) .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران ، 42) **ألا يلفت نظرنا** أن مريم هي المُصْطَفَاءة والمطهرة والمُصْطَفَاءة على نساء العالمين . . . ← **ألاّ يلفت نظرنا** إلى أن القرآن من غير محمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان الأحرى أن تكون أمه آمنة أو زوجه خديجة أو عائشة أو ابنته فاطمة هن من يكنّ يقع عليهن الاصطفاء والتطهر والاصطفاء على نساء العالمين؟! .

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران ، 43) .

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران ، 44) .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ (آل عمران ، 45) .

﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (آل عمران ، 45) .

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ (النساء ، 156) .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (النساء ، 157) .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ ﴾ (النساء ، 171) .

﴿ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء ، 171) .

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة ، 17) .

مريـــــم : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ ﴾ (المائدة ، 17) .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (المائدة ، 46) .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة ، 72) .

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ (المائدة ، 75) .

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ . . . ﴾ (المائدة، 78).

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ (المائدة، 110).

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ . . . ﴾ (المائدة، 112).

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (المائدة، 114).

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . . ﴾ (المائدة، 116).

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ (التوبة، 31).

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (مريم، 16).

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ (مريم، 270).

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (مريم، 34).

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ (المؤمنون، 50).

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب، 7).

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (الزخرف، 57).

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ (الحديد، 27).

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ (الصف، 6).

﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الصف، 14).

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (التحريم، 12).

4- وباعتبار أن عيسى عليه السلام وصف بأنه كلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم . . . فقد تتبعنا لفظة كلمة - وقد وردت في المواضع التالية:

(كلمة: (26)) ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران، 39).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ (*) مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران، 45).

(*) إن وصف المسيح ابن مريم بأنه «كلمة من الله» و«كلمته» . . . ← لعل هذا هو الذي أوقع الفكر المسيحي في القرل بأن المسيح عيسى ابن مريم أزلي وليس مخلوقاً . . تماماً كما كاد أن يوقعنا - نحن المسلمين - وصف القرآن بأنه كلام الله في القول بأنه أزلي وليس مخلوقاً؟!

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (آل عمران ، 64) .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ (الأنعام ، 115) .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ (الأعراف ، 137) .

﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾ (التوبة ، 40) .

﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ (التوبة ، 40) .

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ (التوبة ، 74) .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (يونس ، 19) .

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس ، 33) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس ، 96) .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ (هود ، 110) .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود ، 119) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (إبراهيم ، 24) .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم ، 26) .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف ، 5) .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾ (طه ، 129) .

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون ، 100) .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر ، 19) .

﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الزمر ، 71) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ (غافر ، 6) .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ (فصلت ، 45) .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى ، 14) .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى ، 21) .

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الزخرف ، 28) .

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ (الفتح ، 26) .

كلمتنا : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الصافات ، 171) .

كلمته : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ﴾ (النساء ، 171) .

5- وباعتبار أن عيسى عليه السلام وصف أيضاً بأنه «وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» فقد تتبعنا لفظة روح - وقد وردت في المواضع التالية :

روح	﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾	87 ك يوسف 12
3	﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾	87 ك يوسف 12
	﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾	89 ك الواقعة 56
روح	﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾	87 م البقرة2
14	﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾	253 م البقرة 2
	﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾	171 م النساء 4
	﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾	110 م المائدة 5
	﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾	2 ك النحل 16
	﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾	102 ك النحل 16
	﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾	85 ك الإسراء 17
	﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	85 ك الإسراء 17
	﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾	193 ك الشعراء 26
	﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾	15ك غافر 40
	﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾	22 م المجادلة 58
	﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾	4 ك المعارج 70
	﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾	38 ك النبأ 78

	﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾	4 ك القدر 97
روحا :	﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾	52 ك الشورى 42
روحنا	﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾	17 ك مريم 19
(3)	﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾	91ك الانبياء 21
	﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾	12 م التحريم 66
روحه	﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾	9 ك السجدة 32
روحي	﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾	29 ك الحجر 15
(2)	﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾	72 ك س 38

6- وقد تتبعنا لفظة نفخ فوجدناها في المواضع التالية :

	﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾	9 ك السجدة 32
نفخت	﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾	29 ك الحجر 15
(2)	﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾	72 ك س 38
نفخنا	﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾	91 ك الأنبياء 21
2	﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾	12 م التحريم 66
فأنفخ :	﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾	49 م آل عمران 3
فتنفخ :	﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾	110 م المائدة 5
انفخوا :	﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾	96 م الكهف 18
نفخ	﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾	99 م الكهف 18
7	﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾	101 ك المؤمنون 23
	﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾	51 ك يس 36

	﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾	68 ك الزمر 39
	﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾	68 ك الزمر 39
	﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾	20 ك ق 50
	﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾	13 ك الحاقة 69
ينفخ 4	﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾	73 ك الأنعام 6
	﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾	102 ك طه 20
	﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾	87 ك النمل 27
	﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾	18 ك النبأ78
نفخة :	﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾	13 ك الحاقة 69

❖ ومن التأملات المبدئية التي يجب أن نفكر فيها ونتدبرها أن ذكر عيسى عليه السلام – سواء ذكر كعيسى أو المسيح – اقترن غالباً **بأنه عيسى بن مريم** . . . . . . وقد يكتفى بابن مريم . . . .

❖ إن المسيح عيسى ابن مريم إنما ذكر وسط حشد من الأنبياء والرسل باعتباره نبياً رسولاً . . واستمراراً للظاهرة الدينية وتثبيتاً لمبدأ النبوة . . . .

❖ إن أمه ذكرت دوماً باعتبارها مثلاً للطهر والعفاف والقداسة .

ـــــولقد تأكد هذا المعنى في نفس الشخص واستقر في أعماقه . . . حتى إنه وفي لحظات الاستثارة والغضب لا يملك أن يذكر مريم إلا طاهرة . . . عفيفة . . . قديسة . . . . مبرأة . . .

ولقد ناقش الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد، القاضي الباقلاني أو ابن الباقلاني – وقد يذكر باسم القاضي أبي بكر الرشوي ذ 402 هـ) طاغية الروم الذي سأل الباقلاني بقصد سيِّئ ، فقال :

أخبرني عن قصة عائشة زوجة نبيكم وما قيل فيها؟

فقال القاضي: هما اثنتان قيل فيهما ما قيل:

زوج نبينا، ومريم بنت عمران، فأما زوج نبينا فلم تلد وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها... وكل قد برأها الله مما رُميَت به - فنحن نبرّئها.

ـــــ فانقطع الطاغية... ولم يحر جواباً.

❖ وبهذا يكون ميلاد المسيح عيسى بن مريم معجزة.... بل إنَّ قصة أمه وقصته وكل ما يحيط بهما يذكرني جو المعجزة والإرادة والقدرة الإلهية المطلقة الطليقة....

❖ إن المسيح عيسى ابن مريم جاء بان بُشِّرت مريم **بكلمة منه** اسم المسيح عيسى بن مريم..؟

.... كلمة الله دائماً تامة.... صدقاً وعدلاً، وهي العليا وتحق... ومتى سبقت....

ـــــ وعلى كل فالمسيح عيسى ابن مريم رسول الله **وكلمته**...

❖ وعيسى ابن مريم عليه السلام أوتي البينات وتأيد بروح القدس وهو - كما وصف - وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

❖ وقد جاء بان أرسل إلى مريم روحاً تمثل لها بشراً سوياً وجاء بالنفخ في التي أحصنت فرجَها.

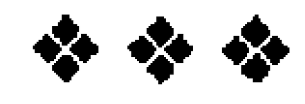
والنفخ في كتاب الله - القرآن - إنما هو مظهر بعث الحياة الآدمية من الله، فآدم بعد أن سواه نفخ فيه من روحه - وهذه النفخة هي التي طلب للملائكة أن يسجدوا عقبها لآدم «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين..».

وهنا فمثل عيسى عند الله كمثل آدم.

وإذا كانت «حواء» قد جاءت من آدم، فإن عيسى قد جاء من مريم...

ـــــ وهكذا تكتمل كل صور الخلق.. من غير حي وامرأة من رجل (أو حواء من آدم)... ورجل من امرأة...

والنفخ سيتكرر ثانية فإذا بالبشر من الأجداث إلى ربهم ينسلون.. يجمعنا جمعاً.. ونأتيه أفواجاً... ذلك يوم الوعيد...



وأخيراً، وبما أنني من الذين يرون أنه من الخير أن يتصل الإنسان بالقرآن عن طريق مباشر. . . وأن لا تكون طريقته إليه عن طريق فلان أو فلان. . .

- لذلك، فإنني أوثر أن أترككم مع انطلاقته الموحية . . تفتحون لها صدوركم فتشرحُها بالهدى وتلهمها الرشاد إن شاء الله.

. . . فعودوا إلى التجميع الذي وضعته بين أيديكم وتأملوه فعسى أن تجدوا فيه أكثر من هذه التأملات المتواضعة. . .

ملاحظتان... في الختام

... وشكر وعرفان؟!

ولعله، من المناسب. . . وقد قطعنا هذا الشوط في جو من التقويم الإيجابي لـ «عيسى في القرآن والإسلام» أن **نختم بملاحظتين** نحاول بهما أن نشير إلى إمكانية تقويم إيجابي لبعض نقاط الاختلاف. . . يؤدي إلى إمكانية توفيق يحل محل الاختلاف إن شاء الله.

والملاحظة الأولى:

حول إطلاق تعبير «ابن الله» الذي نعتقد أن بولس لم يكن ليدرك حين أطلقه كل ما ترتب عليه بعد ذلك من مشاكل في فلسفة الدين لا تحصى.

ونحن نذهب مع الأستاذ شارل جينبير - أستاذ المسيحية ورئيس قسم تاريخ الأديان - إلى أن **إطلاق تعبير «ابن الله» لم يكن سوى أسلوب بياني أو صورة بلاغية عن عبارة يعرفها اليهود** هي «خادم، أو عبد، يهوه» وكثيراً ما تترجم هذه العبارة إلى اليونانية بالكلمات التالية: πais iOU σΣθU وكلمة: π̃θĩs تعني في نفس الوقت «خادم (عبد)» أو «طفل» تماماً كالكلمة اللاتينية «puer» وعلى هذا يكون التطور في اللغة اليونانية من π̃ois أي «طفل» إلى uios أي «ابن» أمراً في غاية من البساطة. وقد حدث مثل هذا التطور اللفظي فعلاً في النصوص اليهودية - المسيحية (كمجموعة أعمال الرسل) التي لا يرد فيه تعبير «ابن الله» سوى مرة واحدة! عندما نقل بعضها على رسائل بولس.

فإطلاق تعبير «ابن الله» على عيسى . . لم يكن في الواقع ليمثل -بالنسبة إلى اليهود سوى ضرب من ضروب الخطر، وهو لا يبدأ في استخدامها إلا على يد المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية . . في اللغة التي استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع – وقد وجد فيها معانيَ عميقة وعلى قدر كاف من الوضوح بالنسبة إليهما؟ ! .

ويمكن لليهودي أن يعتبر نفسه «عبداً ليهوه» لا « ابناً ليهوه» .

وعلى هذا يمكن لعيسى أن يتصور نفسه «عبد الله» ويتقدم للناس بهذه الصفة في بعض العبودية .

وهذه مناسبة لكي نحرر هذا المفهوم مما علق به من تشويه . . .

فالعبودية لله هي تحرر من كل عبودية، فهذه العبودية تشعر الإنسان بأنه لا يمكن أن يكون عبداً لغير الحق والخير والجمال. وقد خلقه الله حراً – على قول سيدنا علي كرم الله وجهه «لا تكن عبداً للغير وقد خلقك الله حراً» .

وهذه العبودية تشعر الإنسان أنه يقف وسائر البشر على صعيد واحد . . . فلا يستبيح لنفسه استعباد غيره ويستنكر – كما يستنكر سيدنا عمر رضي الله عنه – أن يحاول الإنسان استعباد الآخرين . . فيقول مع عمر رضي الله عنه – متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ! .

ومن هنا فالحرية في الإسلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمساواة ويرتبط الاثنان أشد الارتباط بالعبودية لله .

← وهكذا **يعد الإنسان أفضل إعداد، ويهيأ أفضل تهيئة** لمهمته . . للقيام بأمانة الاستخلاف والتعمير – فهو خليفة الله في الأرض والمؤتمن على عمليات التعمير، وليس من شيء في الكون إلا وهو مسخر له وله حق الانتفاع به ولكن بعموم بني آدم . . أي بشعور الأخوة مع الآخرين . . ومع استشعار المساءلة عن النعم التي لا تحصى ويجب أن تشكر بالعمل ويتجنب الظلم فيها بالعدالة .

فالعبودية هي **تهيئة الشيء**، أو **الإنسان**، لما **يصلح له**، والإنسان يهيأ للاستخلاف والتعبير والأخوة .

والملاحظة الثانية :

حول الصلب وقولهم : إنَّا قتلنا المسيح ، والصلب في القرآن الكريم يفيد أن يصلب فتأكل الطير من رأسه (يوسف 4) أو التصليب في جذوع النخل (طه 71) أو التصليب على إطلاقه (الأعراف 124 ، الشعراء 49) وهو القتل المعروف ← الذي أخذ من أن الإنسان ينزف حتى صلبه . . . . والصلب هو العظم من الكاهل حتى . . . . ومنها يقال إنَّ فلاناً صلب فلاناً . . . . .

وعلى هذا يمكن أن ينظر إلى قول القرآن إنَّهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ **أي شبه لهم أنهم صلبوه** . . . أي شبه لهم أنهم قتلوه تلك الْقَتَلة المعروفة ، **فهم قد يكونون قد وضعوه على الصليب إلا أنه أنقذه الله** كما أنقذَ إبراهيم وقد ألقي في النار . . . .

← وبهذا يكون قد استمر حياً «**فما قتلوه يقيناً**» . . . ويكون أن توفاه الله ورفعه إليه . . .

وعلى كل ، فإن مخطوطات المسيحيين الأول تترك الباب مفتوحاً لجميع الفروض عن نهاية المسيح .

وإيرينيه Irene الذي ذكره الأستاذ مونتيه باعتباره الشاهد الأول على وثائق إنجيل القديس يوحنا – يعترف في نهاية القرن بأن المسيح ظل يعلِّم الناس حتى سن الخمسين .

ولو أننا أردنا أن نرد التاريخ التوحيدي للقرآن إلى مصدر مسيحي . . فمن الممكن أن نقرب جزئياً بين رأي القرآن عن اختفاء المسيح ورأي النظرة الدوسيتيه do ctrine doceteste التي تقرِّر صراحة «الموت الظاهر» للمسيح تبعاً لإنجيل بطرس (طبعاً . . . مع اختلاف في أن القرآن يعتبر مولد المسيح وحياته وقائع أرضية لا تقبل الجدل !) .

شكر وعرفان:

الشكر لله على ما أنعم به علينا . . ولنعمل على تأكيد «ضرورة» و «صلاحية» الدين لحياة بني آدم . . . ولنؤكد أيضاً صحة الظاهرة الدينية بتأكيد مبدأ النبوة والمعجزات .

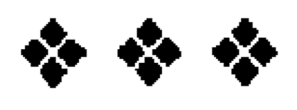
← ولتتكاثف الأيدي من أجل **سلام وعدالة وأخوة وتحرر وحرية. . . وبحث عن الحق** والخير والجمال. . .

وشكراً لهذه الجمعية التي جمعتنا في هذا اللقاء الإيجابي.

بعرفاني بالجميل لها ولكل الأخوة المشاركين. . وكل الإخوة الذين أفدت من أبحاثهم. . . والذين لو أردت أن تتبع استفادتي منهم تفصيلاً لألزمتني كتاباً لذلك، أرمز إلى هذا العالم الذي يعيش في صدري من نعميات هؤلاء الأصدقاء الذين تفضلوا عليّ وعلى بحثي من أي مكان كانوا أو في أي زمان جاؤوا وإلى أي أمة انتسبوا. . . «وأشير إلى الكتب المقدسة والمراجع في اللغة وألفاظ القرآن والتفاسير والأساتذة الدكتور عبد العزيز كامل ومالك بن نبي والدكتور عبد المنعم خلاف. . .» فإليهم، **وإلى كل أصحاب الفضل** الذين اقتبست منهم، بل وسمحت لهم أحياناً بالحديث مباشرة إلى القارئ، بينما أخذت على عاتقي أحياناً أخرى التحدث عنهم. . باعتبار أن أفكارهم قد صارت جزءاً من وجودي وفكري، وذلك أنّها انعكست في نفسي بغض النظر عن أصحابها. . . إلى **كل** أولئك أرجع ما في هذا البحث والدراسة من حسنات، أما السيئات والعيوب فأنا المسؤول عنها وحدي.

وليس من طلب الحق فأخطأه. . كمن طلب الباطل فأصابه. . وإني من أهل دين يؤمنون بالاجتهاد وبذل الجهد والمجاهدة والجهاد. . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. . . . وعلى أخويه موسى وعيسى وسائر الأنبياء والرسل أفضلَ السلام. . . والحمد لله. . أولاً وآخراً. . .



XI

خاتمة المطاف... وأعمال تنتظرنا!

لقد أوضحنا في مقالنا الماضي كيف يعامل القرآن الكريم عالم الشهادة والحس معاملة هي المعاملة التي انتهى إليها منهج الدراسة العلمية بعد رحلة شاقة طويلة، وانتهينا إلى القول: (إن هناك نوعين من حقائق الوجود، **ولكل منهما طريق لكشف حقائقه، فهناك (عالم الشهادة) أو عالم العلم والمشاهدة والحس**. . والذي تحدثنا عنه ـ والقرآن الكريم يطالب بالنظر في مشاهدِه. . .

وكان المقال قد أوضح تفصيلاً كيف طالبنا القرآن الكريم ودعانا إلى «النظر والمشاهدة والملاحظة **بشمول يمتد عبر الآفاق الواسعة الممتدة المتنوعة الدائبة الحركة والمليئة بالحوادث والتبدلات المتكررة بصورة توحي باطراد القوانين** ـ وهذا هو عالم الشهادة الذي يشهده الإنسان فيدركه بحواسه، وبعقله وتفكيره، ويستثمره لمنافعه ويتمتع بما فيه من جمال. . .

والقرآن الكريم يدعو إلى النظر والتأويل والتفكير جاعلاً من هذا المنطلق طريقاً للوصول لله الخالق المقدر للسنن والقوانين».

وقد قلنا: «**إن الله لم يضع قوانين وسنناً ليتقيد بها كالأغلال والأصفاد**، فهو حر الإرادة والقدرة، ويجب ألا نتوهم ـ كما توهم بعض فلاسفة اليونان ـ أنَّ الله لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة. . .».

كذلك قلنا للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، وتصدهم عن الإيمان بالنبوة بمعناها عند جمهور الناس: «إن أمرها أهون في التقدير مما يتصورون، وإنَّها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة، لأن الله يفعل مثلها في كل دقيقة ملايين الملايين. . .».

وختمنا بالقول: «**وهناك عالم الغيب** والطريق الموصلة إلى حقائقه النبوة أو الوحي الإلهي. . .».

عالم الغيب . .

إن عالم الغيب غير مسلم به عند المذهب المادي، إذ هو مبدأ متميز عن المادة. . .

وعالم الغيب هو نقطة البداية والنهاية في المذهب الغيبي، فالله خالق ومدبر الكون، وسبب أول ينبثق عنه كل موجود، وإليْهِ المآب . . .

وكم كان بودي أن أتوسع فأبين أن هذا المبدأ هو الذي يتولى بيان أصل المادة الذي يبدو غامضاً موغلاً في الإبهام في المذهب المادي.

كما أن القوة الغيبية وإرادتها القادرة تسعفنا حين تعجز القوانين الطبيعية عن إعطاء تفسير واضح للظواهر ـ وكم تعجز هذه القوانين عن إعطاء تفسير. . .

والقوة الغيبية هي جواب الفكر الديني حين يفطن العلم لنطاقه المنتهي المحدود «وفيما وراء السديميات السحيقة في البعد، ووراء ملايين السنين الضوئية وربما ملياراتها، تمتد الهاوية التي لا قرار لها للاّنهائية التي يستحيل الوصول إليها، أو حتى إدراكها بالنسبة للفكر العلمي، إذ لا يجد هذا التفكير موضوعه الخاص وهو: الكم، والعلاقة، والحالة.

فأي كم؟ وأية علاقة، وأية حالة؟

كل هذه الأسئلة لا معنى لها خارج حدود المادة، والعلم نفسه لا معنى له وراء السديميات الأخيرة تقف على الحدود بين عالم الظواهر واللانهائية اللامادية».

على العموم، فلنترك هذه الجوانب، ولنبدأ السير في النقطة التي يسلم بها الأخ الصادق النيهوم، ولنصحح ما نعتقده خطأ عنده . . .

إن الأخ الصادق يوافق على أن المذهب الغيبي يعبر عن المطالب الفلسفية للعقل الذي يرمي إلى ربط الأشياء والظواهر ربطاً منطقياً في تأليف متسق، **كما يوافق الأخ الصادق** على أن المذهب الغيبي ينصب جسراً يتجاوز حدود المادة إلى مثل أعلى للكمال الروحي . . . إلى الهدف الأساسي الذي لم تكفّ الحضارة عن الاتجاه نحوه . . .

منطقة الخطأ الثانية . .

ولكن الأخ الصادق، وهو يوافق على أن المذهب الغيبي يعبر عن المطالب الفلسفية للعقل، لا يرتب النتيجة المنطقية لذلك، والتي تجعل منك - متى سلمت بالقوة الخالقة والأمر القاهر لإرادتها العليا (كن) - ترى أن خلق المادة ينتج من هذا الأمر القاهر، وتطور هذه المادة سيكون طبقاً لأوامر إرادة توزع التوازن والاتساق اللذين قد يلاحظ علم البشر قوانينهما الثابتة، ولكن بعض مراحل هذا التطور ستخفى على الملاحظات المألوفة لرجال العلم دون أن ينطوي المذهب من أجل هذا على نقص ما، ففي هذه الحالات الاستثنائية نستعين بالحتمية الغيبية التي لا تعارض بينها وبين طبيعة المبدأ.

«ولقد نجهل مؤقتاً القانون الذي يسيطر على ظاهرة مازالت تخفى علينا طريقة حدوثها، ومع ذلك فإنَّ المذهب يظل منسجماً منطقياً مع مبدئه الأساسي، بما أن مثل هذه الظاهرة يمكن تسويفها في التحليل النهائي بناء على حتمية مطلقة طليقة . . هي إرادة الله التي تتدخل وتقضي بما تشاء . .» .

وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . .

أورد الأستاذ سيد سابق في كتابه عن العقائد الإسلامية ما يلي :

جاء في كتاب (الإسلام مع الحياة) بعنوان (العلم الحديث ورد الشمس) :

جاء في قصص الأنبياء : أن يوشع بن نون كان في معركة مع أعداء الله، وكادت الشمس تغرب قبل أن ينتهي القتال، فخشي أن يعجزوا إذا امتد القتال إلى اليوم التالي، فقال للشمس : أنت في طاعة الله، وأنا في طاعة الله، فأسألك أن تقفي حتى ينتقم الله من أعدائه قبل الغروب، فاستجاب الله الدعاء، ووقفت الشمس، وزيد في النهار حتى تم النصر ليوشع .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

قال المفسرون : - إن موسى عليه السلام ومن معه هربوا من فرعون خوف القتل، ولما انتهوا إلى البحر، ولم يجدوا سبيلاً إلى ركوبه أوحى الله إلى موسى أن

يضرب البحر بعصاه، وحينما امتثل ما أمر الله به تجمع الماء على الطرفين بعضه فوق بعض، حتى صار كالجبال، وخرج موسى وأنصاره، وتبعهم فرعون وقومه في نفس الطريق، فأغرقهم الله، وكان البحر يبساً في طريق موسى، وماء في طريق فرعون.

وكذب الكافرون كلاً من المعجزتين، أو الحادثتين:

أولاً: لأنها خرق لقوانين الطبيعة..

ثانياً: لو صحت لجاء ذكرها في غير الكتب الدينية، **لأنها** من الأحداث العالمية العجيبة.

وقرأت في جريدة الجمهورية عدد 13/ 12/ 57 أنَّ كتاباً في علوم الطبيعة ظهر حديثاً، وقد أثار ضجة......

أما المؤلف فهو عالم روسي من علماء الطبيعة في جامعة أدنبرج، ودرس التاريخ والقانون والطب في جامعة موسكو، ودرس علم الأحياء في برلين وفي زيورخ، ودرس الطب النفسي في فيينا، ولقد خرج المؤلف من أبحاثه التي استمرت أكثر من عشر سنوات إلى استنتاجات علمية تؤيد بدون قصد ما جاء في القرآن الكريم وسيرة الأنبياء عليهم السلام.

وقد رأيت أن أنقل للقراء مقتطفات من الكتاب كما ترجمتها ونشرتها جريدة الجمهورية.

قالت الجريدة: يقول المؤلف: إن نيزكاً هائلاً مر إلى جوار الكرة الأرضية في عهد يوشع خليفة موسى عليهما السلام، ثم عادت الظاهرة إلى الوجود بعد ذلك بسبعمائة عام. وهذه الظاهرة الكونية الهائلة التي تسيرها قوى خارقة غير مرئية تفسر المعجزات التي جاء ذكرها في الكتب السماوية والتوراة والإنجيل والقرآن.

إن اقتراب كوكب أو نيزك من الأرض يحدث **ظواهر متعددة**، **منها** أنَّ دوران الأرض حول نفسها يقل أو يقف حتى يخيل إلى الناس أن الشمس قد وقفت في كبد السماء، **ومنها** انشقاق البحر وانعقاد أعمدة من الغمام في النهار والليل، ولقد مر كوكب في عهد الفراعنة، فأمطر الأرض سيلاً أحمر طبع الأرض والنيل والبحر بلون الدم. وهذا يؤيد ما جاء في الآية الكريمة:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ (سورة الأعراف، آية 133).

وقد تساقط هذا التراب الأحمر في جهات متفرقة من الأرض.

إن المعجزة التي تخرق كل قوانين الفلك والطبيعة لا تصنعها سوى قدرة الخالق وحده.

لقد تمت المعجزة حين هرب موسى من اضطهاد فرعون مصر، فتابعه فرعون بجيوشه، ولكن انشق البحر، فمر موسى ومن معه بسلام حتى إذا أتْبَعهم فرعون وجنوده، عاد البحر إلى سيرته الأولى، فانطبق على المطاردين وابتلع الرجال والفرسان ولم ينج منهم أحد.

ويقول المؤلف: إنَّهُ في العهد الذي يقابل عهد موسى، يقول المؤرخون الصينيون: إنَّ الشمس آنذاك لم تغرب حتى لقد حرقت الغابات، وذاب الجليد.

وهكذا لبثت الأرض ساكنة كأن قوة جبارة قد صنعتها، ولا يصف على وجه التحديد كم استمر وقوفها قبل أن تتابع دورانها حول نفسها مرة أخرى.

ولكن هل تابعت الأرض دورانها في نفس الاتجاه؟

إن الأرض الآن تدور من الغرب إلى الشرق - فهل كانت هكذا دائماً؟

إذا رجعنا في الإجابة على هذا السؤال إلى الخرائط القديمة، فإن الإجابة هي: لا، لأن الخرائط التي رسمها قدماء المصريين في سقف أحد المعابد تدل على أن الأرض كانت تدور قبل وقوفها من الشرق إلى الغرب، وهذا ما أكده أفلاطون في حواره عن السياسة. حيث قال: (إن الشمس من قبل كانت تغيب حيث نراها تشرق). و(العمل) هذا ما يفسر الآية الكريمة ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ سورة الرحمن، آية 17.

ما أردت بهذا إلا مثلاً . .

وقبل أن يسارع بعض الحرفيين من الماديين - كما سارع بعض الحرفيين من الإسلاميين وأمسكوا بالمثل الذي ساقه الأخ الصادق النيهوم، ونسوا منهجه - إلى

الإمساك بما سقته مثلاً والتمحك به، فإنني أقول لهم، ما أردت بهذا إلا مثلاً على أننا ما أوتينا من العلم إلا قليلاً، وأنَّ من يؤمن بالمذهب الغيبي وإن جهل مؤقتاً القانون الذي يسيطر على ظاهرة مازالت تخفي علينا طريق حدوثها، فانه ـ ومع ذلك ـ يظل منسجما منطقيّاً مع المبدأ الأساسي في مذهبه، إذ يمكن تسويغ الظاهرة ـ في التحليل النهائي ـ بناء على حتمية مطلقة . . هي إرادة الله الطليقة . . .

والفكر الديني وحده يستطيع ـ متى عجز العلم ـ أن يقول شيئاً واضحاً بيِّناً حين يقول: (الله أعلم).

النبوة والوحي والمعجزة . .

❖ إن المذهب الغيبي (إضافة إلى أنه يتولى بيان أصل المادة، ويسعفنا حين تعجز القوانين الطبيعية عن إعطاء تفسير واضح للظواهر، ويمكننا أن نقول شيئاً له معنى حين يعجز العلم ولا يجد الفكر العلمي موضوعه الخاص من: كم وعلاقة وحالة) فإنه يجد البرهان الذي يدعمه فيما يمكننا أن نصطلح عليه بـ **(الظاهرة النبوية)** و **(الظاهرة القرآنية)** التي تضع الدين في سجل الأحداث الكونية بجانب القوانين الطبيعية . . .

❖ وقبل أن ندخل إلى مناقشة **(الظاهرة النبوية)** نود أن نلاحظ ـ كما لاحظ أستاذنا الفاضل المفكر المؤمن مالك بن نبي ـ «أنَّ الدراسة الموجزة لا تؤدي إلى فهم (الظاهرة الدينية) المعقدة، لأن لها مظاهر متنوعة ومتعددة في مختلف البيئات الإنسانية، ولقد قامت نظريات غريبة عن طبيعة هذه الظاهرة وتاريخها، فالمؤلفون المعاصرون يحاولون شرحها في ضوء تفسير تاريخي مجرد، تبعا لمنهج (ديكارت) الذي يرجع كل شيء إلى معيار أرضي».

❖ وإنَّهُ ليبدو أن تعقيد (الظاهرة الدينية) قد أضل الفكر الإنساني الحديث، وأننا مازلنا ـ بلا شك ـ مزعزين أمام المشكلة التي تشتمل على ربط أحداث متباينة كمذهب وحدة الوجود والشرك والوحدانية في نطاق واحد!!!

كذلك قد ضل الفكر الإنساني الحديث حينما حاول أن يقرر أن الفكرة الدينية قد انتقلت من جيل إلى جيل بواسطة انكشاف باطني (!)

وهذه الفكرة البسيطة تزيد في تعقيد موضوع سبق أن قررنا أنه معقد.

ونعتقد أنه أولى بالدارس أن يهتم بدراسة ديانات التوحيد التي تتابعت وقدمت برهانها الأسمى على ألسنة الأنبياء...

والواقع أنَّ تتابع ديانات التوحيد دليل يمكن فحصه دائماً من الناحية الاعتقادية فحصاً يقوم على أساس النقد، ويتمثل هذا التتابع في ظهور النبوة وجميع المظاهر الأدبية والروحية التي تصحبها...

ومنذ إبراهيم عليه السلام **تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم،** جاؤوا يخاطبون الناس بأن (حقيقة مطلقة) يقولون إنهم يعرفونها معرفة شخصية، وخاصة، بوسيلة سرية هي الوحي.

ويقول هؤلاء الرجال: إنهم مرسلون من (الله) ليبلغوا كلمته إلى البشر حيث لا يستطيع هؤلاء أن يسمعوها مباشرة...

وإن مبدأ النبوة يعرض نفسه بفضل شاهده الوحيد ـ النبي ـ كظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات الإنسانية التي تعبر عنه.

منطقة الخطأ الثالثة..

وهنا لابد لنا أن نقف مع الأخ الصادق لننقل له ما يقرره أستاذنا الفاضل المفكر المؤمن «مالك بن نبي»... **لا** نستطيع ملاحظة **ظاهرة النبوة** إلا من خلال شهادة النبي، وفي محتويات رسالته المتواترة المنزلة فالأمر يتعلق بمشكلة (نفسية) من ناحية، و(تاريخية) من ناحية أخرى...

ولنا أن **نلاحظ أولاً** وقبل كل شيء **أن بعث نبي ما ليس حدثاً فذّاً بحيث يكون غريباً، بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين** من التاريخ، منذ إبراهيم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، **واستمرار ظاهرة تتكرر يعتبر شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها** (ويتصل بهذا المعنى الآية الكريمة ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾).

ومن المعلوم بناء على وجهة نظر (هيجل) ـ التي تعتمد على ملاحظة الظواهر ـ أنّنا إذا وجدنا حالة نبوية خاصة لا تشرح ولا تثبت شيئاً، **فان تكررها في ظل بعض**

الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة علمية، ويبقى علينا أن نبحث في ماهية هذا التكرار لكي نستخلص منه ومن صفاته الخاصة به القانون العام الذي يمكن أن يسيطر على الظاهرة في جملتها. . .

وقد قام أستاذنا المفكر المؤمن مالك بن نبي بدراسة منهجية دالة أوضح الدلالة على ما عنى به من إثبات صحة دليل النبوة وصدق دليل الوحي وأن القرآن تنزيل من عند الله وأنه كلام الله لا كلام البشر. . .

وكما يقول أستاذنا العلامة المحقق محمود شاكر «وهذا المنهج الذي سلكه مالك، منهج يستمد أصوله من تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية، وفي غريزة التدين في فطرة البشر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسم بالتناقض أحياناً، ولكنها تكشف عن مستوى التدين في كل إنسان. ثم هو يستمد أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها، ثم في سيرة رسول الله، بأبي هو وأمي، منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ثم في هذا البلاغ الذي جاء ليكون بنفسه، دليلاً على صدق نفسه، وأنه كلام الله المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه. . .».

ومن شاء أن يعرف مزيد تفصيل عن صحة دليل النبوة ومعرفة قوانين (**ظاهرة النبوة**)، وصدق دليل الوحي وأن القرآن تنزيل من عند الله، فعليه الرجوع إلى كتاب الأستاذ المفكر المؤمن مالك بن نبي والمترجم باسم (**الظاهرة القرآنية**).

ومن هذه الدراسة المنهجية يتضح:

1 ـ أنه لم يعد هنالك تفسير آخر ممكن (لظاهرة النبوة) إلا بأن نضع تفسيراً يقوم على وجود ذات عينية لا يربطها بالذات المحمدية رباط تبر ر (الوحي).

2 ـ إن شهادة الأنبياء جميعها تدعم هذا الرأي، إذ إنَّهم جميعاً ـ وهم الشهود الوحيدون، وشهادتهم مباشرة ـ وبالإجماع قد وضعوا الظاهرة خارج كيانهم الشخصي.

ولو أدرك الأخ الصادق النيهوم الأمر على وجهِهِ هذا لأدرك أن من خصائص النبوة صفة القهر النفسي الذي يقصي جميع العوامل الأخرى للذات، ولأدرك أن الوحي غير المكاشفة أو الاكتشاف أو الانكشاف الباطني (!).

والمكاشفة لا تنتج عند صاحبها يقيناً كاملاً، بل كأنما تخلق نصف يقين، أي بعض ما يؤدي إلى ما يسمى (احتمالاً). والاحتمال معرفة يأتي برهانها بعدها، وهذه الدرجة من الشك هي التي تميز المكاشفة من الوحي من الناحية النفسية.

وصفة القهر النفسي التي ترغم وتلزم النبي بسلوك معين ودائم لا تجد تفسيرها إلا في يقين النبي الكامل من المعرفة الموحى بها وكونها غير شخصية وخارجة عن ذاته ومن قوة قاهرة...

وبهذا الفهم كان يستقيم للأخ الصادق النيهوم أن يعرف مهمة المعجزة باعتبارها البرهان الفرد والدليل المستبين القاهر الذي يعطى النبي يقينه في مصدر المعرفة الموحاة ويكون آيته التي تقطع بأنه مرسل من عند الله.. موصول بالملأ الأعلى، يتلقى عنه، ويأخذ تعاليمه.

وهذه الآيات ـ أو ما سميت «بالمعجزات» لعجز العقل عن تفسيرها كما تعجز القدرة الإنسانية عن الإتيان بمثلها ـ فوق مقدور البشر وخارج نطاق طاقاتهم ومعارفهم الخ...

فما الذي يمنع أن تكون مخالفة للسنن لما ألفنا من قوانين الطبيعة كما هي خارقة للعادات المألوفة؟

والمؤمنون بالله لا يتوقفون في تصديق شيء، متى ثبت بالدليل القاطع الذي لا يتطرق إليه الشك، لأنهم يعلمون أنه سبحانه لا يتقيد بالسننِ التي وضعها....

جوانب أخرى للمعجزة..

ما قدمناه من حديث عن المعجزة حتى الآن إنما يدور حول علاقة المعجزة بالطبيعة وسننها المطردة، وحول علاقتها بالله موجد الطبيعة، وحول المعجزة باعتبارها البرهان والدليل المستبين القاهر الذي يكون آية للناس...

ويبقى حديث **علاقة المعجزة بالناس وعقولهم وآثارها في الدعوة.**

ـ أو بالأدق: **هل هناك ضرورة ظاهرة لإحداث المعجزة؟**

للجواب على هذا يجب أن نستحضر صور المجتمع الإنساني في عصوره الأولى البدائية، الواقفة عند المحسوسات، المنعزلة كل شعب وقبيل عن الأخرى،

لا ترى إلا قطعة محدودة من الأرض وأُفُقاً ضيقاً من السماء، ليس لـها تـاريخ وليس لها علوم وآداب. . . وهي ترى ظواهر الطبيعة ولا تستطيع لها تعليلاً. . .

ثم نستحضر سيرة الأنبياء وكيف حاولوا تحطيم الوثنيـات والارتفـاع مـن عـالم الحس والمشاهدة إلى عالم الغيب والإيمان بالله الواحد الأحد. . .

وهم ـ أي الأنبياء ـ حاولوا أن يوسّعوا آفـاق البشـر، وحـاولوا أن يفـهموهم أن الكون تنتظمه قوانين. . بل إن المجتمع الإنساني نفسه تنتظمه قوانين هي الحق وموازيـن القسط. . .

ثم لا ننسى أن لكل أمة رسولاً، ورسـولاً مـن بينـهم يـأكل الطعـام ويمشـي فـي الأسواق. . .

وإذا ما ذكرنا كل هذا، فإننـا نـدرك أن مـن يسـتجيب لـهذا الرجـل هـو العـدد الأقل ممن يلبيّ كلمة الحق لأول سماعه بها، وهؤلاء حتى في زماننا قليل ما هم. . .

أمـا غالبيـة البسـطاء مـن النـاس فلابـد لاسـتجابتهم مـن وسـيلة أخـرى بجـانب وسيلة المنطق والعقل. . .

وإذا ما أدركنا أن النبوة رحمة الله إلى عباده، فكيف يهمل الله هـذه (النزعـات الطفلية) في نفوس أكثر القطيع الإنساني من غير أن يفحمهم من طريق الحـس وإقامـة الحجة الدامغة ـ في رأيهم حسب ما يقترحون؟

وإذا ما علمنا أن الغاية من المعجزة غاية عظيمة، بل أعظم غايات الحياة، وهـي حمل كثير من الناس على الإيمان بالله، وإنقاذهم مما يهدر كرامتهم ويسـفل بـهم إلـى أقـل مـن درجـة البـهائم، وهـو السـجود لصنـم واللـيـاذ بـه وبيـع الحريـة الفكريـة والشخصية. . .

ـ **إذا علمنا ذلك**، تبين لنا أن المعجزة أمر محتم لتكملة السعي في سبيل إنقاذ الإنسان.

وأخيراً، فـلا بـد أن نذكـر أن المعجـزات الحسـية إنمـا أجريـت لتعجيـز المكـابرين وأخذ طرق الإنكار عليهم، حتـى لا يفلتـوا إلـى عـذر بعدهـا، وحتـى يُحْمَلـوا حمـلاً

على الشعور بتعنّتهم، ولذلك كانت هي الدور الأخير من حجج الرسل بعد أن يعييهم لحاجة الناس. . .

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. (سورة الإسراء، الآية 59).

فالمعجزة أجريت لإتمام الحجة. . .

والناس متنوعو التفكير وطرق الاقتناع، ولابد من تنوع وسائل إقناعهم. . .

والبشرية في قرونها الأولى قد تكون كالأطفال لا يصدرون إلا إذا رأوا ثمرة أو جمرة. . درهماً أو سوطاً. . ، أما الرسالة الأخيرة فمضمارها الحجة العقلية الدائمة: القرآن المعجز. . .

آية رسول الله آيات القرآن المعجز؟!

لقد عبر القرآن الكريم عن المعجزة بكلمة (آية)، ومعنى هذه الكلمة: العلامة الظاهرة، وهي تكنية على الإمارة والدليل القاطع والمعجزة. . .

ويقال لكل جملة! من القرآن آية. . .

وإنَّ في إطلاق هذه الكلمة على المعجزة وعلى جمل القرآن ما يفيد أن الآيات القرآنية في ذاتها تدل دلالة قاطعة على أنها حقيقة إلهية لاشك فيها. . .

ولذلك تعتبر أنها المعجزة الكبرى التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، والحقيقة أن القرآن هو أعظم معجزة نزلت على نبي، لأنه قائم ما قامت الدنيا، وآياته لا تحتاج إلى دليل لتأييدها، هي بذاتها دليل قاطع وبرهان ساطع على صحتها، وأنها حق منزل من عند الله على مدى الأيام والعصور، وأنَّه تحدّى ببلاغتِه وأحكامه جميع بلغاء الأجيال ومكملاتها على أن يحاكوه أو يأتوا بمثله فعجزوا جميعاً ونكصوا. . .

عود على بدء: القرآن المعجز . .

وهكذا تعود أطراف الموضوع المترامية لتتلاقى في الحديث عن إعجاز القرآن، وإعجازه لغوي أدبي نفسي. . ، وقد سبق لي في مقالاتي الأولى أن فتحت لي

مناقشتي للأخ الصادق باباً للقول في («إعجاز» القرآن) كنت أتهيب أن ألجه وأبقي نفسي دونه . . .

ومع أنني اختصرت في ذلك وقصرت ، وإن كان البعض رأى أنني أطلت ، وأخشى أن أكون قد أمللت ، ولكن عذري أنني كنت أكتبُ في موضوع ما كان ليثار لو أننا لازلنا نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية . . .

إن عبقرية العربي هي أنه في **أساس اكتمال نضجه ، بعد خلقه ، أن يتعلم البيان** . . تمهيداً لاكتساب رحمة الله بتعلم القرآن . . .

«الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان» . . .

وإنَّ الآيات القليلة من القرآن ، ثم الآيات الكثيرة ، ثم القرآن كله ، أي ذلك كان ، في تلاوته على سامعه من العرب ، الدليل الذي يطالبه بأن يقطع **بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر ، وذلك من وجه واحد هو وجه البيان والنظم** . . .

فإذا صح أن (الإعجاز) كائن في وصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربي مبين ، وأنَّ **خصائصه مباينة للمعهود من خصائص كل نظم وبيان تطيقه قوى البشر في بيانهم** . . .

فإذا صح هذا ، وهو صحيح لا ريب فيه ، ثبت ما ذهب إليه أستاذنا العلامة المحقق محمود شاكر من أن :

أولاً : إنَّ اللغة التي نزل بها القرآن معجزاً ، قادرة ، بطبيعتها هي ، أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة **بين كلامين : كلام هو** الغاية في البيان فيما تطيقه القوى ، وكلام **يقطع** هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه .

ثانياً : إن أهلها قادرون على إدراك هذا الحاجز الفاصل بين الكلامين . وهذا إدراك دال على أنهم قد أوتوا من لطف تذوق البيان ، ومن العلم بأسراره ووجوده ، قدراً وافراً يصح أن يتحداهم بهذا القرآن ، وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه ، أنَّ تاليه عليهم نبي من عند الله مرسل .

ثالثاً : إن البيان كان في أنفسهم أجل من أن يخونوا الأمانة فيه ، أو يجحفوا عن الإنصاف في الحكم عليه . فقد قرعهم وعيّرهم وسفه أحلامهم وأديانهم ، حتى استخرج أقصى الضراوة في عداوتهم له ، وظل مع ذلك يتحداهم ، فَنَهتْهُمْ **أمانتهم على البيان** عن معارضته ومناقضته ، بل كفوا ألسنتهم فلم يقولوا شيئا . هذه واحدة .

وأخرى : أنه لم ينصب لهم حَكَماً ، بل خلّى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له ، ثقة بإنصافهم في الحكم على البيان ، فهذه التخلية مرتبه من الإنصاف لا تدانيها مرتبه .

الطريق الصعب :

وأنت خليق أن تعرف أن الشيء الذي نطلبه ، واحتججنا له بقول أستاذنا العلامة المحقق محمود شاكر ، **إنما يتعلق بخصائص البيان القرآني وخصائص بيان البشر** على اختلاف ألسنتهم ، وإن مخرج هذا غير مخرج هذا . . .

كما يتعلق الأمر ، الذي حاولنا الكشف عن منهاجه ومذهبه ، التماس ما ينبغي أن تكون عليه صفة كلام هؤلاء الذين اقتدروا على مثل هذه اللغة التي أنزل بها القرآن ، وأوتوا ذلك القدر من تذوق البيان ، ومن العلم بأسراره ، ومن الأمانة عليه ، ومن ترك الجورفي الحكم عليه ـ فهم لاشك قد بلغوا في الإعراب عن أنفسهم بألسنتهم المبينة مبلغاً لا يدانى . . .

وبهذا ينهار القول بعجز هذه اللغة ؟ !

وهكذا ينهار القول بعجز هذه اللغة ، وينهار القول بالرمز . . .

تماماً كما فقد القول برفض المعجزة ما يسنده من خلفيات . . .

كلمة عن قصص القرآن . .

فالإقرار من وجه النظم والبيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين يتطلب الإقرار بصحة ما جاء فيه ، فإذا استبان من نظمه وبيانه إنفكاكه من نظم البشر وبيانهم ، من وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين ، فانه من قبيل التّزيّد في القول ، أن نقول :

إذا أقررتم أنَّه كلام رب العالمين فعليكم أن تؤمنوا أنَّ ما جاء به هـو القصص الحـق وإن ناقض ما تعرفون، أو باين ما عندكم أو عند غيركم. . .

مع ملاحظتنا الدائمة أنَّ طابع السرد التاريخي الـذي تميزت بـه الروايـة الكتابيـة لقصص الأنبياء ليست هي طابع القرآن الـذي يسـوق القصـة لمقـاصد تربويـة لا تخفـى على الدارس لقصص القرآن. ونحن نعتقـد ـ مثلاً ـ أن سـورة مريـم كـان المقصـد مـن ورائها ما ذهبنا إليه من حديث عن المعجزة وكيـف أن أمرهـا هـين علـى اللـه. . ابتـداء بقصة زكريا ويحيى إلى عيسى الخ. .

مهام صعبة تنتظرنا. .

ومع ذلك، فإننا نؤمن أن هـذا القـران مـا كـان ليفـترى مـن دون اللـه. . ولكـن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. . .

والقرآن يثبت ـ باعتداد ـ التشابه بينـه وبـين التـوراة والإنجيـل، وهـو يؤكـد هـذه القرابة. . .

ولكن حيث تتوثق القرابة بين القـرآن والكتـاب المقـدس يؤكـد القـرآن استقلاله بعلائم مميزة كثيرة. . .

ففي رواية العهد القديم استخدم إخوة يوسـف فـي سفرهم (حمـيراً) بَـدَلاً مـن **(العير) في رواية القرآن**، على حين أنَّ استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعـبرانيين إلا بعـد استقرارهم فـي وادي النيـل، كمـا أن الحمـار عـاجز عـن أن يجتـاز مسـافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين. . .

وأيضاً في رواية (سفر الهجرة) لمشهد عبور بني إسرائيل البحر الأحمر حيـث غـرق فرعون وجنوده، نجد القران يكمل هذا العرض بتفصيل غير متوقع، وهو غير عادي!

. . . أعني (النجاة البدنية) لفرعون. . .

ويقول الأستاذ مالك بن نبي (علمـاء الدراسـات المصريـة ـ بخاصـة ـ يـهاجمون الرواية الكتابية، مدعين أن تاريخ ملوك مصر لم يسجل اختفاء فرعون المعاصر لموسى في البحر الأحمر. . .

ومن هذا القبيل أن تذكر الرواية الكتابية جبل (ارارات) في قصة الطوفان، ويحدّد التفسير اليهودي المسيحي موقع هذا الجبل في (أرمينيا)، ثم يذكر القرآن اسماً خاصاً هو اسم جبل (الجودي) الواقع في الموصل، ثم نجد أن الاكتشافات الجيولوجية والأثرية الحديثة تحدد مكان ظاهرة الفيضان في مكان قريب من ملتقى دجلةَ والفرات.. غير بعيد من بلدة (أور) حيث ولد إبراهيم عليه السلام..

أما بعد

فعسى أن يكون الله قد ادخر لآخر هذه الأمة، بعض ما يلحقها بفضل أولها...

وعسى أن يتم على يد آخرها ما خبأه الله عن أولها...

وأنا مكتف في هذه المرة بمناشدة الجامعة الإسلامية ووزارة الثقافة والإعلام أن ينهضا لأمر هذه اللغة العربية ويمكننا لعملين أن يتما في ليبيا.

أول هذين العملين: معجم معالم اللغة

وهو عمل قرأناه واطلعنا عليه في «دهاليز» دار الكتب المصرية، ويمكننا أن نتحدث عنه باختصار باعتباره **معجماً في ستين مجلداً، يزيد المجلد منها على ألف صفحة من الصفحات الكبيرة**، وقد جرى المؤلف فيه على إيراد الكلمات على ما آلت إليه صيغتها... كما تذكر مشتقاتها من إبدال وإعلال وإدغام إلى غير ذلك، ثم يورد في كل كلمة ما يلائمها أو يضادها، أو يحوم حولها أو يلامسها من الألفاظ والعبارات والجمل، وما ورد عليها من كلمة أو مثل.

وقد جعل المؤلف له مقدمة تبلغ زهاء أربع آلاف صفحة، تتضمن أبحاثاً في فن اللغة وأصول الكلمات وأوزانها، وفلسفة الحروف وتركيبها.

ثم قال: إني قد ذكرت مزية كل حرف من حروف الهجاء على اختلاف وروده أولاً وآخراً ووسطاً، بحيث إن المتدبر معرفة مزايا الحروف يستطيع أن يعرف حتى معنى الأوابد من الكلم بمجرد نظرة إلى ما ركبت منه من حروف، وإلى غير ذلك من أسرار اللغة.

ثم قال: وقد توسعت في باب تعاقب الحروف، بحيث يؤلف هذا البحث زهاء بضع مئات من الصفحات، وقال: وبحثت في مقام لغة العرب من اللغة القديمة،

ولاسيما السامية، والحديثة. . . وفي صلاحيتها للاستعمال في مختلف الأجيال، وفي مرانتها وقابليتها لمجاراة العمران من كل وجه. . . **وفي سهولة نحو العربية**، بحيث أنك تلقنه اللقن الفهم فيتدبر في أقل من ساعة **رفع المرفوع** من الأسماء في ستة مواضع، **ونصب المنصوب** في أحد عشر موضعاً، **وجر المجرور** في موضعي الجر، **ورفع المرفوع من الأفعال، ونصب المنصوب منها** وجزم المجزوم.

ويتكلم المؤلف أيضاً في معجمه هذا على النحت والمفرد من معاني صيغ الكلام، ثم على الاشتقاق والقياس، واللفظ المشترك والأضداد والخصائص والفروض واللهجات والقلب والإبدال، والبلاغة والفصاحة، والمجاز والاستعارة والعروض والقافية، وأنواع الخط العربي والكتابة ورسم والهمزة والألف إلى غير ذلك مما ورد في كتب اللغة وتفرق فيها.

ثم قال: وحاصل الأمر أنَّ هذا المعجم سيكون ديواناً حديثاً، وجمهرة لفقه اللغة وآدابِ العرب. . تقرأ فيه تاريخهم وأخلاقهم في لغتهم بمختلف الصور.

ثم قال: ولم اقتصر في جمع ذلك على المعاجم المعروفة فحسب، ولكني جمعت من كتب الأدب والفن، بل جمعت فيه كل ما وصلت إليه بدرس من كتبهم، وقد قرأت له نحو مليون ونصف صفحة. . إلى آخر ما قال وهو كثير. . .

العمل الثاني هو (إعجاز القرآن) و(الشعر الجاهلي)

وما لهذا العمل غير أستاذنا العلامة المحقق الشيخ محمود شاكر أمد الله في عمره وأفاد منه شباب هذه البلاد. .

1 ـ وقد قال أستاذنا الفاضل:

«ولقد شغلني (إعجاز القران) كما شغل العقل الحديث، ولكن شغلني أيضاً هذا (الشعر الجاهلي)، وشغلني أصحابه، فادّاني طول الاختبار والامتحان والدراسة إلى هذا المذهب الذي ذهبت اليه، حتى صار عندي دليلاً كافياً على صحته وثبوته، فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبددت في الثرى أعيانُهم، رأيتهم في هذا الشعر أحياء يغدون ويروحون، رأيت شابهم ينزو به جهله، وشيخهم تدلف به حكمته،

ورأيت راضيهم يستنير وجهه حتى يشرق ـ وغاضبهم تربدّ سحنته حتى تظلم، ورأيت الرجل ومن معه، والرجل وصاحبته، والرجل الطريد ليس معه أحد، ورأيت الفارس على جواده، والعادي على رجليه، ورأيت الجماعات في مبداهم ومحضرهم، فسمعت غزل عشاقهم، ودلال فتياتهم، ولاحت لي نيرانهم وهم يصطلون، وسمعت أنين باكيهم وهم للفراق مزمعون، كل ذلك رأيتُهُ وسمعته من خلال ألفاظ هذا الشعر حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس، وبحّة المستكين، وزفرة الواجد، وصرخة الفزع، وحتى مثلوا بشعرهم نصب عيني، كأني لم أفقدْهم طرفة عين، ولم أفقَدْ منازلهم ومعاصرهم ولم تغب عني فداجهم، الأرض، وحتى كاشفوني فلم يطووا عني شيئاً مما عاينوا وأبصروا، ولا مما أحسوا ووجدوا، ولا مما سمعوا وأدركوا، ولا مما قاسوا وعانوا، ولا خفي عني شيء مما يكون به الحي حياً في هذه الأرض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم (جزيرة العرب).

آخر الأمر.. وآخر الأمة..

وآخر الأمر أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، فإذا كان أولها لم يصلح إلا بالبيان، فآخرها كذلك لن يصلح إلا به...

وإنّ امرأ يقتل لغته وبيانها، وآخر يقتل نفسه، لمثلان، والثاني أعقل الرجلين؟!

ودعائي بالعقل لمن لم يترهم قول الصادق النيهوم بعجز لغتنا...

وهذا ما بذلت جهدي أن أفحصه، وأنفي عن لغتنا القذى، وأخلِّصَها من الأذى، مبتغياً بذلك وسيلة إلى ربي سبحانه، طلبت القربة عنده ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة النحل، الآية 111)..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المحتوى

مقالات حول المسيح

عيسى ابن مريم ؟

* مَنْهَجٌ في فَهْمِ النَّصِّ القُرْآنيِّ...

* مَنْهَجٌ في فَهْمِ الدِّينِ وَمَوْقِفِهِ مِنَ العِلْمِ وَ«المُعجِزَةِ» وَالنُّبُوَّةِ...

* مَنْهَجٌ في فَهْمِ القُرْآنِ وَالإِسْلَامِ..

